يوسف إدريس

اللعبة

رواية

مكتبة الفكر الجديد

يوسف إدريس

اللعبة

الطبعة الثانية

(١)

انتهى عمله في العيادة ، فرفع سماعة التلفون ، واتصل بزوجته ليخبرها انه قد يتأخر الليلة .

وجاءه صوتها :

– هلو . . .

خطر له أن يداعبها ، فقال وهو يحاول تغيير صوته :

– مساء الخير .

وابتسم لنفسه . وسمعها تسأل :

– من تريد ؟

ما عرفته . فاستمر في دعابته ، وقال بنفس الصوت :

– ولكن الا تردّين على تحيتي اولاً ؟

وجاءه صوتها هذه المرة حازماً منفعلاً :

– من تريد ؟

أضحكه الغضب في صوتها ، فقال فرحاً بمزاحه :

– يا آنسة . لقد قلت مساء الخير . فهلا رددت على تحيتي أولاً ؟

وتردد التلفون رويداً ، ثم سمعه يغلق . فابتسم الدكتور «رافع» ابتسامة عريضة :

«حسناً لقد فاتت عليها دعابتي ! . »

وعاد يدير القرص من جديد .

كان فرحاً . وسمع صوتها مرة أخرى :

– هلو .

أغرته نبرتها البرمة على أن يستمر في مزاحه ، فهمس وبنفس الطريقة :

– مساء الخير . .

وانتظر . .

تقضت هنيهة ، وسمعها تقول بصبر :

– الا تقول من تريد ؟

– يا آنسة ردي التحية اولاً . . .

قدر أن عينيها الان تلتمعان بغضب وفضول . وزاد ولعه بمزاحه .

وعاد يقول :

– ليس من اللياقة الا تردي على التحية .

– ساغلق السماعة !

– وستضطربين لان ادير القرص مرة ثالثة . .

وساد الصمت قليلاً . وجاءه صوتها ، يحمل ضجراً واضحاً :

– ألن تقول ما تريد ؟

– ليس قبل أن تردي . . . ردي على تحيتي ! . .

وسمعها تغلق التلفون :

قهقه «رافع» بمرح ، وهو يشعل لنفسه سيكارة ، وفكر :

لم تكن زوجته قط كالاخريات . ولعل هذا ما زاد ولعه فيها . صحيح أنها جميلة . ولكنه موقن الان ، أن جمالها ، لم يكن سبب شغفه . . بل هذا المزاج الذي يرتبط بجمالها ارتباطاً فريداً .

لقد كان فيها مع ذكائها وثقافتها ، فضول طفلة ، وعنادها ونزواتها . ولهذا ، فلقد خيل اليه احياناً ، أن علاقته بها ، تكاد تشبه ما يروى في القصص ، وأن حياته معها . . . حبه لها . . زواجه منها ، ماهو الا فكرة ، في ذهن كاتب غريب الاطوار . .

لم يضايقه فيها قط ، انها لاتتكلف أيما تغيير لطبيعتها ، حتى وان كان غير ملائم لمزاجه . قالت له مرة :

– أنا كما أنا . . لقد ارتضيتني وارتضيتك بهذا الشكل ، فلماذا نتصنع ؟

واقتنع . فله هو أيضاً غرائب أطواره . . وهما على اية حال «مجنونان» يكمل أحدهما جنون صاحبه . . . مجنونان ظريفان :

وابتسم «رافع» لنفسه ، وأدار قرص التلفون . وانتظر ، ظل يسمع في الآلة صوت الجرس دونما جواب . فأيقن انها لن ترد . وأعاد السماعة الى مكانها .

عند الثامنة ، ترك عيادته ، واستقل السيارة الى النادي ، ولم يلبث هناك أن تذكر أنها لابد تنتظره ، فاستأذن أصحابه ، ودخل غرفة التلفون .

كان من عادته اذا اتصل بها ، أن يبادرها بالحديث ، دونما تحية ، ولا مقدمات . وسمع صوتها :

– هلو .

وقال في نفسه «فلأستمر في تغيير صوتي» ، وهمس وهو يشد على فكيه مؤكدا على مخارج الحروف .

– مساء الخير . .

وأحس من جديد بترددها . وسمعها تقول :

– أخي . ألا تخجل ؟

– ابداً . فلم أسمع في حياتي عن انسان يخجل من قوله «مساء الخير» ربما كان الاولى أن يخجل من لا يرد التحية .

– والآن ؟ .

بدا ترددها واضحاً . وقالت :

– حسناً . مساء الخير . . هيا . . قل ماعندك . .

ماذا يقول ؟

لقد كان في نبراتها لون صابر ، كمن يقول : «هيا أرنا سخافاتك» .

– شكراً . هذا كل ما أردته . شكراً .

– سخيف . .

– شكراً أيضاً .

وأغلق التليفون . وابتسم لنفسه ، وهو يعود لاصحابه . وفاته أن مداعبته أنسته أن يقول لها عن تأخره .

لم تكن «عادة» تقدر أن المتكلم سيتصرف بهذا الشكل . ولهذا ، فقد ضايقها أن يبادر لغلق التليفون بنفسه .

وظلت تفكر : من تراه ؟

كان بها من الفضول ، بحيث تمنت لو اتصل بها المتحدث المجهول ، مرة أخرى لتكيد له .

جاوزت الساعة التاسعة الا ربعاً . تأخر «رافع» ، ولم يفكر حتى بأن يخبرها بأنه سيتأخر . وخطر لها أن تفتعل خصاماً لهذا السبب . . لمجرد التنويع . صحيح أنها تكره أن تكون زوجة مناكدة . ولكن . . ولكنه يعرف أنها تنتظره . . وانها وحيدة . . ستخاصمه . .

أن الحياة الهادئة تبعث في روحها الملل . وهذه الخاصيات الصغيرة تشد العلاقات . تمتنها .. تجلوها . لعلها قرأت ذلك في كتاب ما .

كان أخوف ما تخافه أن يصيبها الملل ، وأن تفقد حيوية علاقتها بزوجها ذلك السحر الذي دفعها اليه . .

لقد أحبته . .

كان يملك أن يحرك في نفسها الفضول والتحدي . . وهي تتذكر الان ، المرة الاولى التي التقته فيها ، والطريقة التي شد بها على يدها حينما صافحها . ثم قوله ببساطة ، حينما ودعها ، وأمام الناس :-

- سيكون رائعاً أن أراك مرة أخرى يا آنسة . .

وبعد ذلك بثلاثة أشهر تزوجته .

* * *

(٢)

فتحت له الباب صامتة . كانت الساعة تقارب العاشرة والنصف . وسمعته يقول وهو يتجه بجبوية الى الاريكة :

- أتدرين ياغادة ؟ لقد . . .

لم تصغ اليه .

دخلت غرفة الطعام ، وهي تفكر بالطريقة التي يحاول التخلص بها . كانت واثقة أنه سيتبعها ، وأن تصنعها الغضب سيفعل مفعوله . ولهذا ، لم تلتفت حين سمعته عند باب الغرفة يقول :

– لقد اتصلت بك ثلاث مرات . . وكان الخط مشغولاً . مع من كنت تتحدثين ؟

لم ترد عليه ، فأردف :

– والآن مابك ؟ قلت لك انني اتصلت ثلاث مرات . لقد كان لي بعض المشاغل في النادي . عجباً . . لاحق لك في اصطناع الغضب . ظلت ساكتة ، متشاغلة عنه باعداد المائدة . وقدرت أنه سيحاول مرة أخرى مصالحتها ثم يكف . . سيغضب هو أيضاً ، تماماً كما تفعل هي الآن .

– لن تردي اذن ؟

قالها معلناً إنذاره ، وأضاف :

– حسناً . !

وترك الغرفة . .

لقد كان وهو في طريقه الى البيت يفكر بأنه سيخبرها بما فعله في التليفون . . وانها سيضحكان . . وينتهي كل شيء .

أما الآن ، فهي تركب رأسها ، فلن يصالحها . لقد حاول ، والذنب ذنبها . لن يكلمها الا اذا كلمته . وهذا أمر تعرفه هي جيداً .

وغضب . .

أقنع نفسه بأن من حقه أن يغضب .

جلس قرب المدفئة ، وتناول مجلة راح يتلهى بقراءتها ، وما لبث أن رأى «عادة» تخرج من غرفة الطعام ، وتقف قبالته ، فتشاغل عنها بالجريدة . وسمعها . وكأنها تحدث في الغرفة شخصاً ثالثاً :

– سيبرد العشاء .

كان جائعاً . ولكنه فضل الآن وبعد أن بدأت هي الحديث–الا يرد فبقي قاعدا في مكانه . وظلت هي واقفة ، ومضت هنيهة :

– لعلك تناولت عشاءك في النادي ؟

اراد أن يقول «لا . . انني جائع مثل ثور» ولكنه آثر أن يكابر :

– نعم

ورآها تدخل غرفة النوم بعصبية .

وعلى المائدة ظل الطعام لم يقربه أحد .

وتقضت ساعة . .

وشعر «رافع» بالجوع والحرج . . وباب غرفة النوم موارب . . والصمت يأكل المنزل . . .

وجد نفسه يتلصص الى المائدة ، ويتناول على عجل شيئاً يسد به رمقه ، وهو يؤنب نفسه :

«ستنام هي دون عشاء . .»

وتضايق . .

أطفأ الضياء في غرفة الطعام . . ثم في «الهول» ودخل بهدوء غرفة النوم .

كانت في سريرها ، وبيدها كتاب تقرأ فيه . فتمنى لو يملك من التبسط ما يمكنه من أن يذهب اليها الآن ، فيداعب شعرها المرسل على الوسادة ، ويمسح على جبينها . . ويحكي لها كيف جازت عليها حيلته . .

لن يفعل ! .

أبدل ملابسه ، وأوى الى سريره بصمت . . وتصنع النوم .

كان يفصل بين سريريهما ، منضدة ، يقوم عليها مصباح . ومن خلال جفنيه المغمضين–نصف المغمضين–راح يرنو اليها .

لم تكن تقرأ

كان واضحاً انها تفكر . فظل يرنو اليها بشغف .

اما هي فكانت تفكر به ، وبنفسها . واستذكرت الصوت الغريب في التليفون . وتداعت لها :

يا آنسة . .

هه ! لم تعد بعد آنسة . . .

وشعرت بأن الحياة الزوجية يمكن أن تتحول ببطء الى سلسلة من العلاقات البليدة التي لانطاق . وحمدت لنفسها انها لم تصبح أماً . اتفقا على أن لا يكون لها طفل الا بعد ثلاث سنوات من زواجهما ، وإنها لتذكر الان ، أن رافع قال لها أيام الخطوبة :

– الاطفال رائعون حقاً . ولكننا سنؤجلهم . . سنتين ثلاثاً . . . ماذا تقولين ؟

فما الذي يمكن أن تقوله ؟ انها تريد أن تكون اماً . . ولكنها مع هذا ، تكره أن تتقيد .

«دعينا نرى الحياة قبل ذلك . . » هكذا قال لها رافع : «ان امامنا الكثير مما سنفعله لانفسنا ، قبل أن يكون لنا طفلنا الاول . »

فما الذي صنعاه ؟

رأت زوجها الان يجلس على سريره ، فحاولت الا توليه انتباهاً وسمعته يقول بضجر :

– أف . . .

وغرق صوته في السكون ولم ترد عليه :

– هذا الضياء يضايقني .

كانت تشعر بالنعاس ، فرمت الكتاب من يدها مصطنعة الغضب ، واستلقت على سريرها . .

ورأته يطفئ الضياء . .

لم يكن «رافع» برماً بما حدث .

أبداً .

كان يلذ مثلها هذا الخصام . وفكر :

تراه يتمنى لو كانت زوجته على غير ماهي عليه ؟

لو كانت اكثر طاعة مثلاً ؟ أقل عناداً ؟ لو كانت شخصية أخرى ، كالفتاة التي اقترحوا عليه أن يتزوجها ، ووصفوها بانها «عاقلة . . وبنت عائلة . . وغنية . .

وفوق ذلك كله جميلة كالقمر ! ! » ؟ . . أيرضى أن تكون «غادة» بشخصية «ليلى» زوجة صديقه الدكتور علي : زوجة مطيعة ، تجيد امور البيت . . توافقه على كل ما يقول ، لاتعترض عليه : يتأخر . . يسكر . . يقامر . . يتحدث . . يسكت . . يرضى . . لايرضى ؟ .

كلا . .

انه لن يرضى لزوجته أن تتخلى عن أيما ذرة من شخصيتها . لو لم تكن كذلك ، لما امتلأ اعجاباً بها وحباً . وهو ليريدها : بمشاكساتها . . بعنادها . . بذكائها الذي يكاد يقهره . . بثقافتها وهي تساوقه . . باصرارها الذكي على أن لاتترك عملها كمدرسة للادب العربي . . بمزاجها الشاعري . .

ليس . . ليس من زوجة كزوجته !

– ان لك زوجة من طراز فريد . . .

هكذا قال له ابن عمه الذي قضى خمس سنوات في أوربا .

انما . . انما ثمة شيء من ضيق لا يفهمه أحياناً ، بل يحسه كلما استوعب في حادثة ما ، شخصية «غادة» حتى يخيل اليه حينذاك ، انها أقوى منه ، أكثر صلابة وتماسكاً . . الأمر الذي يدفعه أحياناً للاحساس بالتخلف ، فيروح يكذب في نفسه إحساساً بانه ليس أهلاً لها ، أو ، أن حبها له ، يمكن أن ينطفئ ، أو أن الحياة ، يمكن أن تقدم – ذات صدفة – لغادة ، رجلاً أكثر رونقاً وتألقاً من هذا الذي ارتضته لها زوجاً .

ولم يرتح لخواطره .

واستذكر صوتها في التليفون هذا المساء . وفكر :

لو كان هذا الرجل مثلاً . . هذا الصوت الذي اصطنعه في التليفون ، رجلاً اتصل «بغادة» . . وظل يتصل . . ثم أقام علاقة معها . .

وانتبه :

انها لم تحدثه بقصة التليفون . . .

انما . . أنى لها أن تفعل وهما مختصمان ؟

حسناً . تراها ستحدثه بعدئذ ؟

ولكن . الا يمكن أن تعتبر الأمر شيئاً تافهاً لا يستحق الرواية ؟

وسأل نفسه : ماذا لو استمر يداعبها في التليفون ؟

ماذا لو حاول أن يعقد معها علاقة عن هذا الطريق ؟

تراها ستستجيب ؟

تراه يفلح ؟

ألن تكتشف صوته ؟

ألن . . ؟

شغلته الفكرة . وأرهبته . فأقلع عن التفكير بها ، وراح يحاول النوم . . .

* * *

(٣)

تناولا فطورهما معاً . ثم غادرا الدار سوية . وعند الظهر ، كان على «رافع» أن يتناول غداءه لوحده . اذ انها ستبقى في المدرسة .

كان البيت صامتاً . وكانت «غادة» رغم غيابها ، تملأ كل مكان فيه : آثارها . . ملابسها . . بقايا لمساتها الذكية . . عطرها . . ثم : صورتها هناك على المنضدة الصغيرة في الزاوية .

وراح «رافع» يتأمل الصورة من مكانه بشغف :

هذه الملامح ، تشبه بتناقضاتها الحلوة ، صورة للرسام الايطالي «موديلياني» . .

بشر العينين السوداوين ، والذقن المدلل الصغير . . والفم . . الفم المتجمع على نفسه حلاوة كأنه يتهيأ لقبلة ، أو يوشك أن ينتهي منها . . والانف الاخنس الدقيق ب ترع . وتبل .

وأحس انه بحاجة اليها .

كانت الساعة تقارب الثالثة والنصف ، فراح يرتدي ملابسه ، والصمت حوله تخلص عن حركة العصافير المرحة في الحديقة ، وأنسام شتائيه نشطة تتسلل عبر النوافذ .

بعد قليل ستعود ، بينما يكون هو قد ذهب الى عيادته . . وعن له أن ينتظرها ، الى أن تدخل ، حتى يحتويها بين ذراعيه ، ويعتذر لها عن تصرفه .

لكم يشتاق لان يفعل ذلك ! انما . . لن يكون سلوكه مقبولاً لديها . اي فتاة سواها . لن يجد ، واقعه ، حرجاً في أن يعاملها كما يريد ، وسيكون الأمر طبيعياً ومقنعاً . اما هي . فلا . .

لقد حرص دائماً ، اذا سلك تجاهها سلوكا عاطفياً ، أن يكون ما يأتيه سلوكا طبيعياً . . منسجماً ، وكأنه لا مناص منه .

وفكر : «من الاحسن أن أغادر البيت قبل أن تعود . .»

واستغرقه العمل في العيادة . .

أما هي فعادت متعبة قليلاً . ووجدت البيت خالياً ، فضاقت .

كانت ترجو أن تراه وبدا لها خصامها سيطول . فكرهت ذلك . واسرعت تتصل بصاحبتها .

- أتذهبين الى السينما ؟

كان الفيلم تافهاً . ولكنها لم تتضايق . وفكرت : ان الكثير من السخافات تبدو ضرورية .

وأحست مقدماً ، أنها ستعود الى البيت وتنتظره ، وسيشغلها التفكير بأن يكلمها او تكلمه . وستنام ، ومن جديد . . المدرسة . . والبيت . . والمساء .

لقد

.. العينين السوداوين ، والذقن المدلل الصغير . . والفم . . الفم المتجمع على .. حلاوة كأنه يتهيأ لقبلة ، أو يوشك أن ينتهي منها . . والانف الاخنس الدقيق .. يرتفع ، وتبل .

وأحس أنه بحاجة اليها .

كانت الساعة تقارب الثالثة والنصف ، فراح يرتدي ملابسه ، والصمت حوله .. عن حركة العصافير المرحة في الحديقة ، وأنسام شتائيه نشطة تتسلل عبر .. النافذة .

.. قبل ستعود ، بينما يكون هو قد ذهب الى عيادته . . وعن له أن ينتظرها ، .. أن تدخل ، حتى يحتويها بين ذراعيه ، ويعتذر لها عن تصرفه .

لكم يشتاق لان يفعل ذلك ! انما . . لن يكون سلوكه مقبولاً لديها . اي فتاة .. سواها . لن يجد «رافع» حرجاً في أن يعاملها كما يريد ، وسيكون الأمر طبيعياً ومقنعاً . .. اما هي . فلا . .

لقد حرص دائماً ، اذا سلك تجاهها سلوكا عاطفياً ، أن يكون ما يأتيه سلوكا .. طبيعياً . . منسجماً ، وكأنه لا مناص منه .

وفكر : «من الاحسن أن أغادر البيت قبل أن تعود . .»

واستغرقه العمل في العيادة . .

أما هي فعادت متعبة قليلاً . ووجدت البيت خالياً ، فضاقت .

كانت ترجو أن تراه وبدا لها خصامها سيطول . فكرهت ذلك . واسرعت تتصل .. صاحبتها . .

- .. الى السينما ؟

كان الفيلم تافهاً . ولكنها لم تتضايق . وفكرت : ان الكثير من السخافات تبدو .. ضرورية .

وأحست مقدماً ، أنها ستعود الى البيت وتنتظره ، وسيشغلها التفكير بأن يكلمها أو تكلمه . وستنام ، ومن جديد . . المدرسة . . والبيت . . والمساء .

أف

راعها أن تجد حياتها مملة . وحين أنتهى الفيلم . الحت على صديقتها أن تأتي معها الى البيت .

– لا أستطيع . . صدقيني . . سيزورنا محمود .

هه ! محمود خطيبها . .

وتمنت لو لازمها الاحساس أبداً بأن «رافع» مايزال خطيبها . وأنهما غير متزوجين . وأستذكرت وهي في طريقها الى البيت شيئاً قرأته «لشوبنهاور» . . معنى ، يقول إن الحياة تتململ بين الامل والملل . فكرهته .

لا تريد الملل . . لا تطيقه . .

ليس أروع من أن تكون حياتها كلها مغامرة . . أو مقامرة : شيئاً مدوماً ، متصلاً ، فلا تكف تتحرك . . تركض . . تتسلق . . تسقط . . تضحك . . تبكي . . تعيش !

البيت صامت . .

والمساء يلقي في الجو الواناً كئيبة باهتة . . والبرد وراء النوافذ . وعليها أن تعد شيئاً للعشاء .

انتقلت الى المطبخ ، وأشعلت النار في الموقد الغازي . وفكرت :

ماذا لو انفجر هذا الغاز ، فملأ لهيبه الغرفة ؟

«عش في خطر !» من قال ذلك ؟

«عش على حافة الموت . . انما لا تمت ! !»

كرهت التفكير بالموت . وفجأة رن جرس التليفون ، فانتفضت .

كانت الساعة تقارب السابعة والنصف :

– هلو

– مساء الخير .

والتمعت عيناها .

نفس الصوت الهادئ ذو النبرات المحدودة .

أطربها أن يعود المجهول لمخاطبتها . وترددت . ماذا تفعل ؟ كان ثمة خاطر يقول لها : «أغلقي التلفون» ولكن اعماقها لم تستجب .

وانتظرت . .

أجل ستنتظر هكذا . لن تتكلم «ولئن ما يقوله»

وأمتد صمت قصير . ومالبثت أن سمعته يتكلم :

– حسناً . لن أقتضيك الرد على تحيتي . يكفي انك تسمعينني . . ومرت لحظة ، خيل اليها فيها أنها . . أن من الواجب أن تقطع المكالمة .

وعاد يقول :

– اسمعي يا آنسة . أنا لن اقتضيك سوى أن تصغي الي . . اصغي الي حسب . هل يضيرك ذلك ؟

وأبتسمت غادة لنفسها . وسمعته يستطرد . كان صوته يصلها عميقاً هادئاً . ولأمر ما بدا لها أن فيه نبرة حزينة . .

– ها أنت ترين . . انني . . انني لست كما تتصورين . أقصد لست بالفجاجة التي خيلت اليك . صحيح أن التليفون مجال لعبث المراهقين . وصحيح أيضاً ، انني لا أملك أي هدف من حديثي اليك . . ولكنني . . ولكني أجد الأمر ظريفاً الى درجة تستحق التجربة . . الا توافقينني ؟

وسمعته يضحك بخفة . ثم أردف :

– أمس . . أمس عندما حدثتك ، كنت وحيداً . وكان المساء شديد الكآبة . ولم أكن أدري ماذا أفعل . وفجأة خطر لي وأنا اتطلع الى التليفون . خطر لي رقم . . هكذا . . صدقيني . . رقم لا أدري كيف صادف أن مر بذهني وقلت لنفسي : أقوم ، فأدير القرص على هذا الرقم . . وأتحدث . . أحاول . . وها أنا . في المرة الاولى ، حين أبيت الرد على تحيتي ، كنت أدرك أنني اشتط . . وكان ممكناً أن ينتهي الأمر – لولا – لولا أن صوتاً . . هاتفاً في أعماقي قال لي «اذا ما ردت هذه الفتاة على تحيتك . . فسيكون ذلك فألا حسناً . .»

وضحك مرة ثانية . كانت ضحكة محرجة ، وعاد يقول :

- أدري أنني لا أبدو مقنعاً . ولكنني . . أف . .

كانت «غادة» تقول في أعماقها «بلى . . انني أفهم ما تقول انني . .»

وظلت ساكتة . .

كان يبدو أنها تستحثه للمزيد .

- والآن فلتعذريني . . يجب ان أنتهي . . و . . لكن أن آمل أن تصغي الي مرة ثانية . . شكراً . . شكراً انك أصغيت الي . .

وتناهي اليها صوت السماعة وهي توضع في مكانها في الطرف الآخر . .

. . . . . .

أشعل «رافع» سيكارة ، ونظر الى التليفون الجامد الاسود تحت يده .

كان وهو يتحدث ، يندمج في دوره بعصبية وأرهاف ، وهو يدرك الآن ، دونما أحساس بالتفاصيل ، المعنى الذي يكمن في محادثته .

لم يكن ليتبين : أفرح هو أم متضايق ؟

بدا له بنوع من السرور ، أنه استطاع أن يجعل «غادة» تصغي اليه ، وأن يتقن الهمس بهذا الصوت الذي اصطنعه ، هذه النبرة التي تمرن عليها ، سنة أن قام بدور «هاملت» في الجامعة .

انما . . كان ثمة في هذه اللعبة شيْ غريب . . شيْ يوسوس في أعماقه انفعالاً كالمرض !

وللحظة ، أحس أنه يتمنى لو أنها أغلقت التليفون في وجهه . . لو أنها لم تصغ اليه . .

قام من مكانه . وفكر :

سيلقاها بعد قليل ، وسيستأنفان خصامهما . وتمنى ، لو أنهما لم يختصما . . اذن لكان من المحتم أن تخبره بحكاية التليفون .

عجباً . أنه لأمر مثير حقاً أن يحاول الاستمرار في هذه الدعابة دون أن يكتشف . .

تراه يستطيع ذلك حقاً ؟
تراها لن تكتشف لعبته ؟
تراه ينجح ؟

. . .

غادر العيادة مملوء الذهن . وفكر : أنها لعبة خطرة ! أفرض أنه استطاع أن يؤثر
يها ، وأن يجرها في التليفون الى نوع من علاقة عاطفية . .
أيغتفر لها ذلك ؟
ولكن . .
واعتملت خواطره :
– لكن ماذا ؟
– ولكنها . حتى وأن قدر لي أن أنجح . . فانما . . عجباً . أنه أنا الذي سأتمكن منها
رة ثانية . . سأجعل «غادة» تقع في حبي مرة أخرى .
كان عليه قبل أن يذهب الى البيت أن يزور مريضة في دار قريبة من العيادة . .
ة في مثل سن «غادة» مصابة بالسرطان . وكان قد قطع على نفسه عهداً أن يخفف
نها ما استطاع . . معجباً بشجاعتها . . متأملاً معنى أن تموت ، تأملاً فيه إصرار على
ول الحقيقة السوداء . .
دفعت زيارة المريضة الى نفسه نوعاً من الوجوم . فعاد الى البيت وقد كاد ينسى
سة التليفون . . الخصام . . على أنه لم يفتأ أن استذكر كل شيء وهو يضغط على
رس الباب .
أحس الآن أن «غادة» وقد أصبحت جزءاً من لعبة ، تحمل اثارة المرأة ،
حذقها ، وحيويتها .
وأستقبلته كما توقع . هكذا :
وجهاً عادياً لن تقرأ فيه غضباً أو رضاء .
وتمنى لوحدثها . . لو ألغى هذا التوتر الذي كان قبل ساعة يلذه . ويرى فيه مدعاة
رف . ولكنه وجد ذلك صعباً .

يجب أن يأتي حديثه اليها ، أو حديثها اليه . نتيجة لمحاولة يبذلانها سوية . وبصمت . ذلك ما ألفاه ، واتفقا عليه ، اتفاقاً صامتاً . أن يغضب هو مثلاً ، فتحاول أن تصالحه ، فلا يأبه ، فتغضب هي ، فيروح عندئذ يبذل محاولة لاسترضائها ، فتأبى ، ويمضي على ذلك زمن . . قد يطول ، فيصل أربعة أيام . . ثم يبدأ هو ، وتبدأ هي . . كل يتقرب الى حد . . كل يمهد لصاحبه ، ويتصالحان . . فيأتي الصلح متوقعاً .

كان التلفزيون في «الهول» يصدر صخباً خافتاً . وعلى الاريكة كتاب مكفوء على وجهه . .

ورآها تدخل المطبخ . فقدر أنها تعد العشاء . وتعجب : كان دائماً يرى غرابة في أن تألف «غادة» عملاً منزلياً بهذا النوع من الرتابة .

مالبث أن رآها تحمل ما أعدته الى غرفة الطعام . فخطر له الايتبعها كعادته ، ليضطرها أن تدعوه ، ولكنه لم يستسغ ذلك فقام . .

تناولا عشاءهما صامتين ثم ما لبثا أن خرجا الى «الهول» . فجلس الى التلفزيون ، متظاهراً بأنه يتابع برامجه . . بينما انصرفت هي الى كتابها .

فاجأها مرة وهي تنظر اليه من وراء الكتاب . فافرحه ذلك ، وأبتسم . فأبتسمت . هكذا : ابتسامة ما كان لغيره أن يميزها . . . ابتسامة تومض بخفة في الوجه كله ، وفيها مع ذلك اقتضاب واتزان . . ودلال . .

وسمعا صوت جرس الباب . .

فنظر اليها . ونظرت اليه : كل يسأل صاحبه : من ؟ وتذكر فجأة . إنه «علي» . . الدكتور علي» . لقد اتصل به صباحاً وأخبره أنه قد يمر به الليلة هو وزوجته .

فرح . بهذه الزيارة . ولاح له أنها كفيلة بأن تنقذهما من هذا التوتر الذي يحسانه . موقتاً على الاقل .

ملأ الدكتور علي البيت بضجيجه .

كان مرحاً ، طيباً بسيطاً . بقدر ما في جسمه من خشونة وضخامة .

ورنت اليه «غادة» والى «ليلى» زوجته ، وقالت في نفسها «لا مفر له من أن يكون سعيداً . هذا النوع من الناس لا يمكنه أن يخضع لأزمة أو مشكلة . وبدت لها زوجته من جديد شيئاً شاحباً لاظل له . وتساءلت : «اتراه يحبها ؟» وخيل لها أن «الدكتور علي» يمكن أن يحب كل الناس . . أو الاصح يمكن الا يحب أحداً .

وراحت تحدث ضيوفها بآلية . وسألت «ليلى» :

– هلا حدثتني يا ليلى . . . ترى كيف تقضين يومك ؟ أحسب أن اللاعمل شيء رهيب .

– رهيب ؟

صرخ الدكتور علي :

– ياله من بطر ! . فليكن لك طفل واحد وسترين . .

وأكملت ليلى ، وهي تبتسم بتعب :

– أن الاطفال يأخذون كل وقتي .

وقاطعها زوجها ، وراح يتكلم ملوحاً بيده :

– خذي مثلاً الشيطان الصغير . أمس . لم يترك لنا أن ننام ساعتين . ظل يسمعنا صراخه حتى الثالثة صباحاً . . وأخيراً ضرط في وجوهنا . . ونام . .

ضحكوا . .

وكرهت «غادة» أن ينتقل الحديث الى الاطفال ، مدركة أن هذا سيدفع «الدكتور علي» لان يغمزها في حديثه ، ولأن تسألها «ليلى» كعادتها ، ان لم يكن ثمة في الطريق من . . فأسرعت تحول الموضوع . .

أما «رافع» فراح يتأملها بحب . أحس الساعة شوقاً لان يكون لها طفل ، وبدا له أمر هذا البكاء الليلي ، والضراط ، شيئا ظريفاً . . شيئاً يمكن أن يزيد من قوة علاقتهما .

وصاح الدكتور علي :

– والآن ؟ ألا تسكتون هذه الآلة السخيفة التي يسمونها تلفزيون ؟

فأجاب رافع ضاحكاً :

– ولكن علام الصياح يارجل ؟

وعلقت ليلى بدعابة :

– أنه لا يحتمل في ايما مكان صوتاً أعلى من صوته . .

– ان الحق صوته أعلى أبداً . . ياتاج راسي . .

وقالت «غادة» في نفسها : «أن ليلى لا تخلو من ذكاء . . . كل مخلوق يحمل مبرراته ! . .»

وسرح «رافع» يفكر بزوجته . وجاءه صوت الدكتور علي :

– مابك ؟ . في أي شيء غرقت ؟

– أنا ؟ . . لا شيء . .

وأبتسم . والتقت عيناه بعيني زوجته . فرآها تبتسم له ، وسمعها تقول بعذوبة :

– أنه يفكر بأن من حقكما أن تشربا شيئاً . . ما رأيكما في قليل من «البراندي»

فهتف الدكتور علي :

– عظيمة ! أنت عظيمة يا غادة . وحقك انت المرأة الوحيدة التي تخالف بنات جنسها في المناكدة .

ورد رافع مداعباً :

– ولكن ما تمتدحه فيها مناكدة أيضاً . . . انها تناكد بطريقة معكوسة . . للتجديد .

وأمتزج الضياء بلون السائل الذهبي . وسرى الدفء في رافع . وايقن ان خصامها منه الليلة . فانطلق من وجومه ، وتحركت الامسية بمرح ، وأمتلأت . وهمست غادة لنفسها : «انهم يصبحون رائعين بقليل من هذه السوائل المسحورة . . . يصبحون رجالاً حقيقيين .» وتمنت لو كانت رجلاً .

عند الساعة الثانية عشرة ، هدأت الدار ، وأغلق رافع الباب ، وهو ما يزال يمصمص ضحكته . وألتقت عيناه بعينها .

كانت تقف وسط (الهول) المرتبك ببقايا الامسية ، وعيناها ترنوان اليه بحب
قترب منها ، وقد زايله انطلاق ، وهمس :
عادة !
لم يعجبه صوته ، لم يعجبه أنه كاد يقول لها «إنني آسف يا حبيبتي . .» وسأل
نفعال :
أما زلنا متخاصمين؟
قليلاً . .
ووجدها بين ذراعيه . ووجد شفاهها تلتقي في عناق متأزم . وهمس لها منفعلاً :
ها ؟ والآن ؟
فهمست ، وأنفاسها على شفتيه :
قل .
لن نختصم بعد الآن !
فما ردت عليه .
كانت مسبلة الجفنين ، وسمعها تقول وهو يشدها اليه :
فلندخل الغرفة . .
فما أجابها . . .

* * *

(٤)

عند الخامسة . رفع سماعة التليفون في عيادته وأدار القرص . وانتظر . .
لم يكن ثمة مرضى . .
وظل الجرس يرن برتابة على أذنه . . واوشك أن يعيد السماعة الى مكانها لولا
– هلو . .
وتأنى قليلاً .
كان منفعلاً . فحاول جاهداً أن يسيطر على نفسه . ومرت لحظة . .
– هلو . .

ولم يجد شيئاً يقوله .

كان الان واثقاً انها ستصغي اليه . وانه يستطيع أن يقول ما يشاء . . وأن يتأنى . . دونما خشية من أن تقطع المكالمة . انما عليه أن يجد شيئاً مناسباً يقوله . . شيئاً غير عادي . . وهمس :

- ها نحن ثانية . . .

وبعد ؟

كان على شفتيه طعم من الليل الذي تصرم . . وأضاف :

- عذراً ان كنت قد أنهيت المكالمة أمس . واذا توخيت الصراحة آنسة . . انني أخشى . . أن افشل في أن اكون جديراً بأن تصغي الي . .

وسكت .

كره اسلوبه . فليس من اللباقة أن يعلن لها عن خشيته . تلهفه . فهي تكره التردد . .

وتمثلها في الدار . عند الزاوية . حيث التليفون . واقفة تصغي . وعلى ملامحها تتحرك احاسيس ذكية . وراح يهمس ببطء :

- واذا أردت الحق ؟ احسبني لست مرتاحاً لفكرة الارتباط اليك بحديث . . لست مرتاحاً لانك غدوت تصغين الي . لا تغضبي . دعيني أوضح لك : ذاك انني أخشى أن أدمن فكرة أن نتحدث . ثم . بعد هذا تقطع هذه الاحاديث برغمي . وذلك كفيل بأن يسقمني .

بالامس كنت افكر يا آنسة . قلت لنفسي : «لابد أن تكوني على قدر كبير من الادراك . . والفهم . . والذكاء . وصفاء الحس والا . . والا لأغلقت السماعة . . لما أصغيت لي ثق يا آنسة . . انني لا أقصد امتداحك . . أي فتاة سواك . كانت ستقفل الخط بوجهي . . وتعتبر محاولتي وقاحة . . سخافة . . اوه . . لشد ما يسرني أن أفكر انك لست فتاة عادية . . وانني لواثق من حدسي . . . » . .

وتريث عاد انفعاله بدوره يتسرب الى أعماقه . فيملك عليه حديثه وأفكاره . ولم يعد يتذكر انه انما يخاطب زوجته . .

أبداً . . كان يحس ، هكذا ، احساساً عاماً ، انه يحاور فتاة غريبة ، لا يعرفها

واستطرد :

– لقد خطر لي ، وأنا اتحدث اليك البارحة ، أن اعرفك بنفسي . ولكنني وجدت ذلك سخيفاً . فقلت : . . سأثرثر ، هكذا ، كما أفعل الان . . . ثرثرة لاحدود فيها ، وقدرت انك خلال هذه الثرثرة ستفهمينني ، ستعرفين عني مايهم . . اليس كذلك ؟

القى سؤاله ، وهو يعرف أنها لن ترد عليه ، إنما كان في نفسه أن يحاول . . أن يجعل الاسئلة مألوفة لديها . . لعلها ، من يدري ؟ لعلها تخرج عن صمتها مرة ! وكان به شبه يقين ، انه سيأتي يوم ترد فيه عليه .

وعاد يقول :

– اعرف انك لن تردي على سؤالي . إنما . اسمعي يا آنسة . . إن كنت توافقيني على رأيي . . أقصد . . ان كنت تجدين أن من الأحسن أن احدثك مباشرة عن نفسي دون ان اكلفك عناء الاستنتاج اقول : ان كان ذاك ، فلا تردي . . لا . . اعطيني اشارة ما . . اسمعي ، ان كنت لا توافقينني ، فاقفلي الخط . . أجل اقفليه . . وسأفهم !

وانصت مأخوذاً بفكرته . وتمنى لو سمع صوت اغلاق التليفون ، فذاك يعني أنها غدت تنقاد اليه . وظل ينصت :

حسناً . لم تنه المكالمة . ذاك يعني أنها تريده أن يثرثر . . الا يتحدث عن نفسه مباشرة . .

ولكن . .

وشاع في ذهنه فجأة شعور من خيبة رهيب . .

ماذا لو أنها ، لو ان غادة ، وقد ضاقت بالحاحه ، اصبحت تترك التليفون مفتوحاً . . وتذهب لشأنها . . وتتركه كاكبر مغفل يتحدث الى نفسه ؟ ؟

ارتبك !

يجب أن يتوثق من أنها تصغي اليه والا فلن يغتفر لنفسه موقفاً كهذا . وتصور : سماعة التليفون متروكة جانباً ، وغادة تتنقل في البيت باسمة ، وهو كالاحمق يتحدث . . يتكلم . . ينفعل مع الفراغ . . لا أحد يصغي اليه .

مستحيل !

هناك امرأة في الدنيا . . امرأة في الكون ، تمتلك من رصانة الاعصاب ، وقوة الاحتمال ، ما يمكنها من أن تتمالك نفسها في موقف كهذا ، أن تسيطر على فضولها . . وغادة . . غادة بالذات ؟ !

راحه هذا التفكير ، فقال :

– حسناً يا آنسة . . اذن فأنت تفضلين الطريقة الثانية . . وانصت . فلم يسمع سوى حواطره تقول له : «اية طريقة ثانية ايها الاحمق ؟ . . ان احداً لا يصغي اليك . . »

ولم يعد يحتمل ، فضحك في السماعة بحرج وقال :

– أتدرين يا آنسة ؟ دعيني أصارحك . لقد مر ببالي قبل لحظات ، أقول مر ببالي . . أنك . . ربما لا تصغين الي . . وأن السماعة عندك متروكة للفراغ . . وأنني تعاطي حماقة . . والآن . . الا ترين ؟ أن الامر سيكون مفجعاً بالنسبة لي . أن كان ما قلته صحيحاً . ولهذا فانني . . أرجوك . . أتسمعين ؟ أرجوك . . إن كنت حقاً تصغين لي . . فأقفلي الخط . . أقفليه مباشرة . .

وأصغى بقلق

لحظة . .

لحظتين . .

وأنتست غادة لنفسها . كيف لم يخطر لها أن تفعل هذا ؟ يالله منظراً مضحكاً . شخص يتحدث بأهتمام الى الفراغ . . يحدث نفسه كالمغفل . .

وخطر لها أن تكيد لهذا الرجل . .

لن تغلق التليفون . .

وجاءها صوته

– أرجوك يا آنسة . . أرجوك . . أدري بأنك لست ملزمة بالانصياع لما أريد . . ربما . . أن من حقك الا تردي . انما أرجوك . . ان لم تفعلي . . فسيبقى يعذبني أنني استغفلت . . ولن اغتفر ذلك لنفسي .

وظل التليفون صامتاً في الجهة الاخرى . وقال بيأس . .

– يا آنسة أن موقفك هذا سيجعلني . . اف . . من الطبيعي بعد سكوتك هذا . . الا اتصل بك ثانية . . لا أقصد أن اهددك . . أدري أن الامر لا يعنيك انما . .

كان صوته لاهثاً . . متوسلاً . . آسراً . . ملحاً . .

وفكرت غادة رويداً . .

وضعت السماعة بهدوء على مسندها ، ولم يتح لها عند ذاك أن تسمع الرجل في الطرف الثاني يهمس من كل قلبه . .

– شكراً .

أشعل الدكتور رافع سيكارة جديدة . وتنهد انفاسها كمن يخرج من كابوس . كان نجاحه مزدوجاً . وفكر :

أية فظاعة لو لم تغلق الفتاة الخط !

الفتاة ؟ هه ! أية فتاة ؟ غادة زوجته ! !

فيالها من حقيقة مضحكة . . ومذهلة . .

أحس أنه بعد اليوم غير مستعد لان يكشف لها عن دعابته . فهي لم تعد دعابة أصلاً ، اصبحت شيئاً مهماً يشغل تفكيره . . شيئاً يريده . . يخشاه . . يتفعل له . .

أطل الخادم وقال :

– مراجع . .

– أدخله .

قالها دون تفكير . . وراح يفحص مريضه ذاهلاً .

عبثاً يحاول التركيز .

كان المريض يتكلم ، فيسمع رافع صوته ، ويحس أن للغرفة حدوداً عامة من حوله . ولكنه ضائع فيها . وقال لمريضه :

– اسعل .

وتناهت اليه وشوشات . وجاهد ، يحاول التركيز . وقال لنفسه «انني أسمع شيئاً في قمة الرئة اليسرى . . » !

– والآن تنفس ! . . مرة أخرى . . تنفس بعمق . .

كان المريض انساناً مهدماً في حوالي الستين من عمره .

– اسمع يا عم ! يجب أن تنقطع عن التدخين .

– نعم .

جاء صوت المريض مستسلماً .

وراح يكتب الوصفة . ورن جرس التليفون . فهتف كعادته :

– نعم !

وأحفل لصوت زوجته :

– لن تتأخر طبعاً ؟

كان صوتها واضحاً متناغماً . وبدا له انه يحان . أن صوت امرأته يوحي بالخيانة .

قال بجمود :

– لا . لماذا ؟

خيل له أن صوته متعب ، فيه شيخوخة .

– هل نسيت ؟ ألم نتفق أن نلتحق بالجماعة في النادي ؟

– حسناً .

قالها باقتضاب . وأغلق التليفون !

وفكر : «كيف لا يتأتى لها أن تلحظ الشبه في الصوت ؟»

دفع بالوصفة الى المريض ، وهو لا يفتأ يسأل نفسه :

الا يحذر أن يترك هذا المزاج السخيف ؟ ما الذي يجعله شغوفاً بأن يستمر ، متطلعاً هذا التطلع المتوتر الى ما سينجم عن تجربته . . ؟

ودخلت الغرفة امرأة ومعها فتاة .

– نعم !

أخذت المرأة تتكلم وهو يلاحظ بذهول فمها وهو يتحرك . وتململت الفتاة تحت نظراته . .

– تمددي هنا . .

وللحظة خيل اليه أن الفتاة حامل ، وأن امها قوادة . وسألها :

– منذ متى وأنت تشعرين بهذه الاعراض ؟

– شهر . . أكثر من شهر يا دكتور .

– خذيها الى طبيبة نسائية . .

– ولكن . .

– خذيها . . تفضلي . .

وراحت الفتاة تلملم فستانها . وتسوي شعرها ، كمن تنهض من جماع . .

ورن جرس التليفون ،

– نعم .

– الدكتور رافع موجود ؟

– يتكلم . .

وجاء الصوت ملهوفاً :

– أدركنا يا دكتور . . . لست أدري ما حل بأبي !

– صبراً . من أبوك ؟

– الحاج مهدي . . مهدي العادلي . .

– أوه . . أجل . ما به ؟

وتلجلج الصوت . وبدا لرافع وجه الحاج مهدي ميتاً .

كان يعرف الدار . واستقبلته وجوه يمتصها الشحوب .

جس النبض . . وسحب الجفن الى اسفل .

ميت ! بالضبط كما حدس . . .

قام صامتاً . سد حقيبته . وخرج !

كانت الساعة تقارب السابعة . وقال لنفسه «لن أرجع الى العيادة» وسلك الطريق الى البيت .

وهتف خاطر في اعماقه :

- تراها ستحدثك بأمر التليفون ؟

- نعم .

ووسوس صوت في ذهنه ، كالصوت الذي أوحى اليه بموت الحاج مهدي :

- لا

- ثم ماذا ؟

اربكته أفكاره :

- كيف ؟ ألن يعني ذلك شيئاً . أيها الأحمق ، تصور ، لو أن غيرك فكر بهذه الحماقة . . .

- ثم ماذا ؟

- جبان !

وشد على ناجذيه :

- لن أكون غيوراً . عجباً ، وممن أغار ؟ من نفسي ؟

- أنت تخدع نفسك

- علام ؟ ماذا حدث ؟

- تستغفلك . . إنها تستغفلك . .

- أبداً . . أبداً . . أي تفكير مريض هذا ؟ ! . .

- حسناً ، انتظر اذن ان كانت ستخبرك بأمر التليفون ، فأن لم تفعل فـ . . .

وأدار العجلة بحدة متفادياً سيارة أمامه .

كانت مصابيح الشارع تتفجر امامه بعنف . وهمس لنفسه :

«انني منفعل . . . منفعل بسخافة . ودون داع»

وخفف من سرعة السيارة . . وما لبث أن أنعطف الى طريق جانبي . . وأحتو

الظلمة البعيدة .

* * *

(٥)

دت غادة من المدرسة في اليوم الثاني ، وما أن دخلت الدار ، حتى تذكرت
من جديد .
ستغربت لهفتها . . .
تغربت أن يملك صوت هذا الرجل المجهول ، قوة الملاحقة ، منذ أمس حتى
وأن يكون لحديثه هذا الاثر الذي أخذ يشتد .
غمها راحت تحاول أن تقدر محدثها ، وأن تجمع – كما اوحى لها – من ثرثرته
ضوءاً على شخصيته .

بدا لها أنه في حوالي الاربعين من عمره ، هادئ المزاج غريبه . وخطر لها ، لاول مرة أن تقص حكايته لرافع ، وأن تشركه فيها ، ولكنها ما عتمت أن آثرت الاحتفاظ بالأمر لنفسها .

وتخيلت للمجهول ملامح . .

شيء من الشيب في شعره . . له عينا رافع العميقتان ، وقامة ابيها . . وبشكل عام ، هيئة استاذ علم النفس الذي كانت تعجب به في الجامعة .

واحست شوقاً لموعده .

تطلعت الى ساعتها ، فوجدتها تشير الى الخامسة والربع . .

اتراه سيستمر على الحديث اليها بانتظام ؟

اتراها سترد عليه ذات يوم ؟ . تحدثه ؟ تسأله ، تناقشه ؟

وهمست : «لا يمكن . . !»

لقد كان ما اختطته منذ البداية أن تصغي . . تصغي حسب ، أما أن تتكلم ؟

— وماذا لو تكلمت ؟ .

وسرحت بها افكارها . .

لم ترق لها فكرة أن تحادثه . . سيكون ذلك شيئاً سخيفاً . فماذا يمكن أن تقول له ؟ ان اروع مافي اللعبة انها تملك التصرف ، فهي المسيطرة ابداً . . اذا شاءت اصغت . . وان . .

اخذت كتاباً ، وحاولت قطع الوقت . .

عبثاً . .

انها لا تستطيع حصر ذهنها . . عيناها على التليفون . . ومشاعرها متفتحة مرهفة .

وفكرت :

لو لم يكن موضوع التليفون ، أفكان بأمكانها البقاء هكذا لوحدها في الدار ؟ لقد رفضت الذهاب مع زميلاتها الى الحفلة التي دعتهن اليها «أمينة» ، واعتذرت بأنها

توقع ضيوفاً . لماذا ؟ ألم يكن لأنها لم ترد أن يفوتها حديثه اليوم ؟
واستوعبها التنصت لمشاعرها . وتساءلت ان كان عملها سليماً ، ان لم يكن فيه موجب الحذر . . ماقد تندم عليه بعدئذ . ؟
كان في اعماقها احساس غامض ، بأنها تأتي عملاً غير لائق . فهي ترى الآن بوضوح ، انها لا تريد لرافع أن يعرف . وسألتها خواطرها :
- حسناً . ماذا لو اتصل بك المجهول ، في وقت يكون فيه رافع في البيت ؟
أتسد التليفون ؟ أم تصغي ، وليقل زوجها ما يقول ؟
الساعة هي السادسة !
بالأمس اتصل بها بعد الخامسة .
- ف . .
ضاقت باهتمامها ، وتمنت أن يرن هذا التليفون ويكفيها قلق الانتظار . وهمست في نفسها : «ما بالي اهتم بهذا الشكل الغريب ؟»
وسرقتها خواطرها :
لم تكن تطيق الجيئة والركود . وكان الانتظار يقلقها بشكل فظيع .
أنها تذكر يوماً قالت فيه لرافع قبل زواجها :
- أتدري . ان الهدوء يخنقني . دعنا نخطط لزيارة العالم . تأمل يا رافع . . أن نرى العالم بأسره . .
وصدمها أن قال لها ضاحكاً :
- حذار أن تحسبي أنك ستتزوجين «الوردا» .
ساعتها بدا على مزاجها انطفاء مؤلم . وقالت له بصوت منفعل :
- نستطيع أن نتدبر ذلك . أنت طبيب . وأنا مدرسة . يمكننا أن نوفر . . .
هه ! كان التوفير أبعد ما يمكن أن تمارسه .
ولاح لها الغنى شيئاً يهب القوة . . . فتمنت لو انها بشكل ما غنية . . . ترث عن جدة عجوز اموالاً طائلة . .

تتوقع ضيوفاً . لماذا ؟ الم يكن لانها لم ترد أن يفوتها حديثه اليوم ؟
واستوعبها التنصت لمشاعرها . وتساءلت ان كان عملها سليماً ، ان لم يكن فيه مايوجب الحذر . . ماقد تندم عليه بعدئذ . ؟
كان في اعماقها احساس غامض ، بانها تأتي عملاً غير لائق . فهي ترى الان بوضوح ، انها لا تريد لرافع أن يعرف . وسألتها خواطرها :
– حسناً . ماذا لو اتصل بك المجهول ، في وقت يكون فيه رافع في البيت ؟
أتسد التليفون ؟ أم تصغي ، وليقل زوجها ما يقول ؟
الساعة هي السادسة !
بالامس اتصل بها بعد الخامسة .
– اف . .
ضاقت باهتمامها ، وتمنت أن يرن هذا التليفون ويكفيها قلق الانتظار . وهمست في نفسها : «ما بالي اهتم بهذا الشكل الغريب ؟»
وسرقتها خواطرها :
لم تكن تطيق الخيبة والركود . وكان الانتظار يقلقها بشكل فظيع .
أنها تذكر يوماً قالت فيه لرافع قبل زواجها :
– أتدري . ان الهدوء يخنقني . دعنا نخطط لزيارة العالم . تأمل يا رافع . . أن نرى العالم بأسره . .
وصدمها أن قال لها ضاحكاً :
– حذار أن تحسبي أنك ستتزوجين «لورداً» .
ساعتها بدا على مزاجها انطفاء مؤلم . وقالت له بصوت منفعل :
– نستطيع أن نتدبر ذلك . أنت طبيب . وأنا مدرسة . يمكننا أن نوفر . . .
هه ! كان التوفير أبعد ما يمكن أن تمارسه .
ولاح لها الغنى شيئاً يهب القوة . . . فتمنت لو انها بشكل ما غنية . . . ترث عن جدة عجوز اموالاً طائلة . .

قامت من مكانها . . .
كانت الساعة تتجاوز السابعة .
لن يرن جرس التليفون . .
وكرهت هفتها .

. . . . . .

ترك رافع العيادة فرحاً : أنه لم ينصع لرغبته في أن يستعمل التليفون اليوم : «يجب أن أقلع عن هذه اللعبة السمجة ! . .»

واستقل السيارة . على أنه لم يستطع الهرب من فكرة ملحة كانت تأخذ بخواطره : «لماذا كتمت غادة عني حكاية التليفون ؟»

حاول اقناع نفسه عبثاً .

كان مؤمناً . أن من حق زوجته أن يكون لها شؤونها الخاصة ، انما أمر كهذا لا يعتبر خاصاً ، الا اذا وجدت هي أنه يستحق الاهتمام ، فهي تريده أن يكون خاصاً .

واستذكر : لقد سمع – حين تعرف عليها – نتفاً عن علاقات كانت لها مع هذا أو ذاك . وحين سألها ، قالت ببساطة :

– اسمع يا رافع . انني أبلغ الرابعة والعشرين ، ولن احسبك تظنني من البلادة بحيث تعتقد انني لم اكن ذات علاقات . وهذا بالضبط ينطبق عليك أيضاً . فدع ماضي كل منا لصاحبه .

كان منطقاً مقنعاً . ولكنه لم يستسغه مع ذلك . وسألها :

– غادة . هل ثمة في ماضيك ما تخجلين منه ؟

فردت بخشونة :

– ليس أكثر من خجلي لسؤالك !

ساءته اجابتها فقال :

– اذن لا تدعي الصراحة بعد الان . .

– ليست الصراحة ضرورية دائماً . احياناً تكون الكذبة أكثر اخلاقية من الصراحة . .

احياناً تغدو الصراحة . . وقاحة . . حماقة ! !

قال لها منفعلاً :

– اسمعي . لن ارتضي أن تكذبي علي .

فردت على الفور :

– ولن أحب أن تكون القيم على سلوكي . لست طفلة . .

– ولكن علينا أن نتفاهم . .

فصاحت :

– بماذا ؟ بأن اقص عليك ماضي ؟ ولم ؟ ما الحكمة في ذلك ؟ ثم ، أتحسب أن سؤالاً كهذا لم يمر ببالي : أن اسألك أنا أيضاً عن ماضيك ؟

– حسناً . لماذا لم تسألي ؟

ورآها تسهم رويداً ، وقالت بنبرة جديدة :

– ربما لانني حريصة على علاقتي بك . ان ثرثرة كالتي تريدها يمكن أن تسمم علاقتنا .

– اذن فمعنى هذا أن علاقتنا ستبقى مهددة بهذا الاحتمال . . لخير لي أن اعرف هذه القضايا منك ، من أن اسمعها من سواك !

فقالت ببرود

– تلك قضية ثقة . . . وأنا واثقة من نفسي . .

واضافت :

– وواثقة منك : . اذا شئت .

. . . . . .

وجد رافع نفسه وقد تخلص بسيارته من العاصمة الى ضواحيها . كان الليل ستاراً قاتماً . . والسيارة تمرق وحيدة في الشارع المقفر المعبد . . وقفل عائداً . .

القضية قضية ثقة ! .

الم يتفقا على هذا ؟

ولكنه يجد الثقة في هذه الساعة تهتز . لشد ما يربكه ذلك . وفكر : ما مسؤولية غادة ؟ انه هو الذي بدأ . . هو الذي اخترع هذا العبث ، وتحمس له . ثم ، عدا هذا ، ما الذي فعلته زوجته ، سوى انها راحت تصغي ؟ أو لم يكن نفسه يقدر هذه النتيجة ؟ ألم يكن واثقاً من تأثير هذه اللعبة على غادة ، وعندما استعمل هذا الاسلوب في التليفون ، الم يكن يدري بانه يستفز في زوجته العناد والفضول وولعها بكل ما هو غريب ، وغير عادي ؟

وجد خواطره تخف واحس من جديد ، أن لعبته لا تفتقد الحيوية . . أحس انها شيء يستحق أن يستمر فيه . والقضية كما تقول غادة قضية ثقة . حسناً . فليضع هذه الثقة في الامتحان . .

أنه لا يستطيع الهرب من فكرة أن زوجته يمكن أن تشد اليه من جديد ، وأن ذلك كفيل بأن يؤكد له ذاته . . ويحك ثقته بزوجته . . وبنفسه . . ثم ليكن ما يكون . .

عرج في طريقه على النادي . وشرب كاساً من «البراندي» لن يقطع عن لعبته . وأنه يقرر ذلك ، كما قرر في ساعة أن يسأل غادة الزواج :

– حسناً يا غادة . . ما رأيك في أن نتزوج ؟

ونظرت اليه بقوة . نظرت مباشرة في عينيه :

– لا أدري .

– الم يخطر لك ذلك ؟ الم تفكري به ؟

– بلى . . . انما .

– ماذا يا غادة ؟

– أخشى الا يكون زواجنا مناسباً . يبدو لي اننا لا نصلح للزواج . . لا أنا . . ولا أنت . .

فضحك لقولها . . وأردف مازحاً .

– لا بأس . فلنجرب .

- واذا فشلنا ؟

هتف مغالياً تردده :

- ولماذا نفشل ؟ الا . .

أراد أن يقول : «الا يحب احدنا صاحبه ؟ ولكنه كره التعبير فاستدرك :

- ألا يفهم أحدنا صاحبه ؟ الست واثقة ؟

فردت بنبره عاطفية استغربها :

- لن اغتفر لك أو لنفسي الفشل . .

- لماذا تفكرين بهذا الشكل ؟ اسمعي يا غادة . اذا وجدنا اننا لا نستطيع الاستمرار . فسيكون ذلك مقنعاً لكلينا . . يمكن أن . .

- صه . . لا تتحدث بهذا الشكل . .

كان رافع منشغلاً بأفكاره . . بذكرياته . . ولم يدر كيف امتلأ بالثقة واللامبالاة . نظر الى ساعته ، فوجدها تشير الى الثامنة . وقال لنفسه «هيا . . فلأخابرها . . ان تجربتي تستحق المغامرة ؟»

وأدار القرص ، وحين سمع صوتها ، أحس احساس من أقلع عن التدخين ، ثم عاد . فهي السيكارة الاولى .

همس بخرص :

- مساء الخير .

وتعجب . انه بيدأ ، وليس في ذهنه ، ما سيقوله . وتريث ، ثم قال :

- تأخرت اليوم . أليس كذلك ؟

وفكر : انه استهلال سخيف . وعاد يقول .

- انما . . يا لبلادتي . . فما أهمية أن أتأخر أو لا ؟ أتكلم أم لا بالنسبة اليك ؟ لماذا صور لي الوهم . أنك . يمكن . ولو بشكل بسيط . أن تنتظري حديثي ؟

هالها ان يساوق أفكارها . وقالت لنفسها : «انه ذكي . .» وأصغت :

– وأنني يا آنسة – وسأصر على أن أسميك آنسة حتى وأن اكتشفت انك متزوجة – اريد أن أقول : انني اتساءل احياناً ، ترى ما الدافع الذي يحملك على الصبر في الاصغاء الي ؟ ألن يبعث حديثي السأم في نفسك ؟ ثم ما أليث أن افكر : أنه باستطاعتك ، ان كان حديثي يزعجك ، الا تصغي . . أن تغلق التليفون . . أو على أقل تقدير . . أن تتركي السماعة جانباً ، ريثما أفرغ من هذري . والحق . . انني لأحاول جهدي وأكراماً لحرصي على أن تتابعيني ، احاول الا أكون ثقيلاً ، على قدر ما أستطيع . . وأنني لارجوك ، وبكل اخلاص . . أجل يا آنسة ، أن وجدت انك تبرمين بي ، فانني استحلفك أن تقفلي السماعة بوجهي . . وأعدك . . اعدك بشرفي ، أن تكون هذه الكلمات ، هي آخر ما تسمعينه مني . . ولن . . اضايقك قط ! ها ؟ ماذا تقولين ؟

وفكرت غادة : هذا المجهول داهية . .

الا ترى الى هذا الاسلوب الملتوي الذي يلجأ اليه ، لكي يدفعها لان تفهمه انها غير ضجرة من حديثه ، وأنها بالتالي ، غير متفضلة بالاصغاء اليه ؟ وهمست لنفسها : «والان أيها المحتال . . لن أرضي فضولك . . لن . .»

وأستطرد :

– ليس الان فقط . . في أيما لحظة في المستقبل . اذا شعرت بالضجر . . اذا بدا لك أن من الاصلح الا احدثك ، فأغلقي التليفون ، وسأفهم . . وثقي انني سأحتفظ لك يا عزيزتي . . و . . وأعذريني عن التعبير .

وقالت غادة لنفسها : «ها . . انه يزحف بنعومة أفعى» وشغلها التفكير عن متابعة ما يقوله . . ثم عادت تصغي :

– ولا أكتمك أن فضولاً من هذا النوع غالبني طول اليوم .

قلت لنفسي : لماذا لا احاول البحث عنك ؟ ان لدي رقم التليفون وهو مفتاح جيد : أستطيع ان أفتح الدليل ، وابحث عن الأسم المقابل للرقم . صحيح أنه أمر شاق . ولكني صبور . ولقد اوشكت أن أبدأ بحثي ، لو لا أن خطر لي في الوقت

ورأى على ملامحها ابتسامة . فبعث أنامله الى رقبتها مدغدغاً . . فلم يبدو عليها أيما اهتمام . فقال في نفسه : «والان . . انتظري !»

نهض قليلاً . ودفع بكرسيه نحوها .

كانت متجهة الى الفيلم حقاً . وبدا له أنها تحتمله احتمال أم لطفل مشاكس ، تحاول صرفها عن حديث مهم .

والان ؟

وضع يده على ركبتها ، ثم راح يصعد . . ومدت يدها ، فامسكت بكفه ، وشدت . وكأنها تقول : «إعقل !»

لم يعقل . .

دفع يده الى أعلى . .

كان به شعور من يتصرف إزاء بغي . وساءته أفكاره . ولكن يده ظلت تعابث . .

– رافع !

جاءه صوتها فيه تأنيب أليف . وكأنها تقول «ألا تخجل ؟ ! » فلم يبال والتفت اليه . كان في عينيها نوع من دهشة . وهمست في ضحكة :

– ماذا تفعل ؟

– هيا فلنقم !

– والفيلم ؟

– تعالي . . .

أخذ بيدها . فوجدت نفسها تتبعه . وتخطيا الممر الخلفي لصالة السينما ورآهما أحد العمال ، فومض في عينيه معنى داعر . .

قالت له وهما يدخلان السيارة :

– مابك اليوم ؟

فلم يجبها . بل أدار المحرك منفعلاً . وانطلقا . .

المناسب ، أنني بعملي هذا ، أرتكب حماقة تفسد صفاء ما أنا عليه . . لانه . . ماذا يهم في أن أعرفك ؟ اللهم الا أن احاول اشباع فضولي . . بل ربما افساد صورة . . ولربما قادني ذلك الى المزيد من الفضول . . هل تتابعينني يا آنسة ؟

هزت غادة رأسها باسمة وأدركت أنها كادت تقول :

«نعم» وأصغت :

– وهكذا وجدت أن اترك الأمر على ما هو عليه . أن في ذلك مسحة خيالية . . تصوري : انني اجهل عنك أي شيء سوى هذا الرقم الذي أديره ، وسوى هذه (الهلو) المقتضبة . . لا أعرف ان كنت فتية ؟ . . مسنة ؟ . . مثقفة ؟ . . ثم – وعفواً – أنت على الطرف الثاني في التليفون ، حاضرة ابداً . حتى يخيل الي أنك تسكنين وحدك في البيت . . سجينة ؟ ممرضة تشرف على رعاية جدتها ؟ (وضحك) زوجة حبسها زوجها ؟ . عجوز . . . عانس ؟ . . حتى ليبدو لي احياناً أنك لولا هذه الـ (هلو) – بكاء . . . هل يسؤوك تعبيري ؟

همست غادة لنفسها : «لا أبداً . . أنت تتحدث مثل شيطان !» توقف المجهول عن الكلام رويداً . ثم عاد ببطء :

– لست ادري كيف يأخذني الحماس ، فأروح اتحدث . . وكأنني لم اتحدث منذ دهر . . والمشكلة . . المشكلة انني لا أستطيع تصور وقع حديثي عندك . . اللهم هذه الشخصية الخيالية التي صورتها لك في ذهني . . . شخصية فرضت نفسها علي . . ولقد كنت اتمنى لو انني استطعت أن اقف عند حدود الاحساس المبهم عن شخص ما يسمعني . . ولهذا ، فانا اذ أتحدث إليك ، لا أملك أن أبعد عن مخيلتي ، فتاة في حوالي الخامسة والعشرين . . سمراء . . او لنقل انها ليست سمراء تماماً . . بل هكذا قمحية البشرة . . عيناها سوداوان . . اما أنفها . . فكيف أصوره ؟ دعيني أقل إنه أنف جميل ودقيق . . والفم . . مكتنز . . . اما الشعر فاسود . . اسود فاحم . .

قالت غادة في نفسها «بل كستنائي . . لو تدري» . .

– والوجه بشكل عام . . مستدير ، مع قليل من نحول (وضحك بصفاء . .

واستطرد) ليت شعري يا آنسة . . . لكم أتمنى لو أن خيالي كان موفقاً . . على الأقل . . حتى لا اخيب ظنك . . أتصغين إلي ؟

– أجل . . .

كان الرد هامساً . . خافتاً . . صعب التمييز . . فيه ذهول ، حتى بدا لرافع انه انما توهم سماعه ، لولا أن صدى الهمسة التصق بأذنه فأسكره . كان واثقاً أن هذه الـ (أجل) افلتت بدون ارادة عادة . . لقد سرقها !

وهاله نجاحه . فادرك أن عليه ألا يشعرها بفرحته ، وأن يتجاهل أنها ردت عليه، فراح يقول :

– لا عليك من اسئلتي هذه . . انها عادة كلامية . المهم انني انطوي في خيالي على صورة لك كهذه . . فلتكوني كما شئت . . فلتكن ملامحك أبعد مايكون عما أتخيل . . فستبقين عندي ، يا آنسة ، كما أريد أن أتخيلك : قمحية . . سوداء العينين و . . . سكت . ربما يلتقط انفاسه .

كان يدرك انه غدا يتكلم بدون تفكير . وقال في نفسه :

«يجدر أن أنهي المكالمة» وهمس :

– لقد شطحت . . أنا اعلم ذلك . فأسمحي لي أن ارجئ الحديث الى الغد . . . وأغلق السماعة دون تردد ، وتركها ذاهلة تماماً .

اذهلها أن كلمة (أجل) افلتت من فمها دون ارادتها ، وبدا لها أنه . . من يدري ؟ يجوز أنه لم يسمعها . . ولكن أن تفقد السيطرة على نفسها بهذا الشكل ، فذاك شيء له دلالته ، وهي دلالة تحار في قبولها . . . ترفضها . !

أضحى يضايقها ، أن المجهول بدأ بشكل ما يتسلل الى تفكيرها . . يشغلها . خذ مثلا وصفه لها ، هذا الوصف ، المدهش ، بحيث لم يخطئ إلا في لون شعرها . .

أيمكن أن يحدث هذا ؟ أيمكن ؟

كانت السماعة مازالت في يدها ، فوضعتها مكانها ، وفكرت : ألا يحتمل أن يكون المتحدث شخصاً يعرفها ؟

ها ؟

عجباً ؟ كيف لم يخطر ببالها ذلك ؟ شخص يعرفها ، وتعرفه . . شخص يلعب سماجة . . يستغفلها . . يجعل منها اضحوكة . .

أرعبها هذا الخاطر ، فكرهت نفسها ، وتساءلت :

من تراه ؟

من من معارفها يمكن أن تشك فيه ؟ من منهم ؟

لابد أن يكون المتحدث ذكياً . . جريئاً . . انساناً ذا مزاج !

فمن من الذين تعرفهم له هذه الصفات ؟

ثم ، عدا هذا . . صوت المجهول . . صوته ، يبدو بشكل ما اليفاً لديها . . إنها تدرك ذلك الآن . .

وتحيرت .

استعرضت كل الذين تعرفهم . . الذين عرفتهم من قبل . . فما استطاعت ان تجد بينهم ضالتها . .

وتنفست الصعداء رويدا . .

لايمكن . .

ولكن صبراً . . ماذا عن ؟ . . لا !

لابد انه شخص غريب . . شخص لاتعرفه . .

حاولت أن تقنع نفسها بذلك ، فوجدت اعماقها تطاوعها ، واتصلت بزوجها في العيادة . فلم تلق جواباً . كان رافع ساعتها يستقل سيارته عائداً الى البيت . وكان يفكر :

ادرك اليوم انه غدا يعاني ازدواجاً في مشاعره . فهو حين يتحدث في التلفون يصبح انساناً آخر . . انساناً لايشغله سوى أن يتوصل الى نجاح ما مع هذه الانثى التي يخاطبها ، فهو يسعى جهده ، بكل عزم ، وهو ليدرك الآن بامتعاض فرحته حين قدر له ان ينتزع منها كلمة (اجل) .

حسناً . وبعد ؟

مابال احساسه يتغير حالما يضع السماعة ، وينتهي من نشوة الحديث ؟ ما بال وساوسه تفسد عليه راحته ، فتصور له الامر بطريقة أخرى ، فيروح يعي بخوف : أن هذه المرأة التي يسعى جاهداً للايقاع بها إن هي إلا زوجته ، وانها توشك أن . . ماذا ؟

كان يعذبه ان غادة لم تخبره بالموضوع !

لو أنها نوهت له لو لم تحتفظ بالامر سراً ، اذن لاستطاع ان يعلل نفسه ، بأنها إنما تأخذ القضية مأخذا عابثاً ، كطرافة لاترى بأساً في الاستمرار بها . أما أن تسكت . . وتنجر . . وبهذا الشكل ، حتى لتكاد تخرج عن تحفظها ، فذاك كفيل بأن يدفع الى خياله شتى الاحتمالات التي تحرك له غيرته . . بل واعمق من الغيرة . فيروح يتساءل : «ترى ما عساها فاعلة في المستقبل ، اذا تطور بيننا الحديث ؟ »

كانت هذه النقطة تربكه . . .

هذا السؤال كان يدفعه ابداً لأن يستمر ، فيفكر وهو لا يفتأ يردد بعصبية «سأستمر . . دعني اتأكد . . »

الثقة . . هذه الثقة يجب أن يمتحنها . . ثقته بغادة . . وثقته بنفسه ! !

«ما الذي تراك ستفعله ان أعلنت لك زوجتك بعد مدة في التليفون أنها غدت تحبك ؟ ثم هبها لم تعلن ذلك . . هبها تصرفت بما يوحي اليك بهذا المعنى . . فما انت فاعل ؟ أبوسعك أن تغفر لنفسك هذه الخيانة . . اتملك ايها الغبي أن تبعد عن ذهنك آنذاك فظاعة التفكير بأن غادة يمكن ان تشرك في حبها الآخرين ؟ . . الاصح . . أن تقع في حب سواك ؟ وبأنها أهل لذلك ، إن تعرضت لظرف مماثل ؟»

يالها لعبة معقدة !

ان ما يثيره الآن ، أنه هو . . هو الذي يتحدث ، وليس سواه . فلماذا يفكر باحتمال آخر ؟ احتمال أن يوجد في الدنيا شخص مثله ، يبادر ليسلبه زوجته ، وبمثل هذا الشكل ؟

وصل رافع البيت ، فوجدها تنتظره عند الباب :

- ها ؟

- تأخرت فخرجت انتظرك .

وراح يتأملها جيداً ، كانما يبحث فيها عن ملامح معينة .

تناولا العشاء صامتين . وسألها بغتة :

- ألم يتصل أحد في التليفون ؟

وحدق فيها ، فلم يجد على ملامحها أي أثر لارتباك . بل لقد ردت عليه ، وهي تتناول طعامها ببساطة :

- لماذا من تتوقع ؟

ففكر مصدوماً : «ليس أكذب من امرأة . . »

ها له ان تكذب عليه ، فلا يختلج في وجهها عرق . وقال ، وغضب طاغ يرين على اعماقه :

- لا أحد .

وقام ، فغادر غرفة الطعام .

كذبها يثيره . فهو حانق . حانق حتى ليحار كيف يبعد عن ذهنه فكرة انها تخونه بكذبتها هذه . . و . ومن يدري ؟

لم يعد الساعة يلوم نفسه لأنه ركب هذه المغامرة . بالعكس . امتدح الصدف لانها قادته اليها ، ومن ثم وضعته امام حقيقة ، كان لابد ان يواجهها . حمته من ان يكون مغفلا . وها هو يلمس دلائل شكوكه . يسمعها . يعيشها . والمرأة الآن عنده . اية امرأة . هي مخلوق غادر . لايستحق سوى الازدراء . الغيرة !

- ابدأ مم أغار ؟ من نفسي ؟ كل ما هنالك انني اضع الامور في نصابها .

وسمع في أعماقه صوتاً يقول له :

- انت احمق . تدفعها . وتورطها . ثم تلومها .

وفكر :

لو لم تكذب . . لو حدثته حسب . . والا فما الذي يدفعها للكتمان ؟ لماذا ؟

هذه الاسئلة تعذبه . .

كان تفكيره أبداً يتخذ هذا المنوال : يبدأ بأن يتهمها ، ويفكر بأن حديثها الى رجل لا تعرف من هو . . وبهذا الشكل ، انما هو خيانة . . خيانة بشكل من الاشكال . . ثم ما يلبث ان يعترف ، بأن هذا الغريب لا يعدو ان يكون هو نفسه ، ولهذا فلا يمكن ان يكون غريباً . . وزوجته معذورة ان هي استجابت لتأثير صفاته . . حتى في . . اوه !

يعذبه أنها أخفت الأمر عنه . وقرر في نفسه أنها لو أخبرته ، لو فعلت ذلك . . لما أحس بهذا الضيق .

استقلا السيارة متوجهين الى دار الدكتور علي . وفي الطريق سأل نفسه : أيستطيع التفكير باحتمال العيش بدونها ؟ أيحتمل غصة الاحساس بأن حياته معها ، كانت . . ثم انتهت ؟ . . تركته غادة . . كذبت عليه ؟ خدعته . . غدرت به ؟

— ما بك يا رافع ؟

هزه صوتها . فقال ونبراته تعكس تأزماً :

— لا شيء ؟

واستقبلتها ليلى . . سأل رافع :

— اين علي ؟

— لم يعد بعد . تفضلا !

واحتواهما صخب ثلاثة اطفال . كان الأصغر لا ينفك يصيح صياحاً مزعجاً . وقالت غادة لنفسها : «ومع هذا فان ليلى سعيدة . . لو كنت مكانها قتلت نفسي . . ثلاثة . . هه ! »

وتأملت الكبير . انه لطيف حقاً . وهي لتتمنى لو أن لها طفلا في مثل سنه . .

لايمر بادوار الطفولة . فلا حمل . ولا رضاعة . ومع هذا فهو طفلها . منها . .

مر وقت . ورافع ساهم . لم يفكر بمداعبة اطفال صديقه كعادته . والجو ثقيل . ومنذ برهة هدأت الدار اذ نام الاطفال . ولم يعد أمام عادة سوى ملامح ليلى الصبيانية ، وكأنها مرسومة على الحائط .

وقام رافع :

– هيا

كانت الساعة تقارب العاشرة . وهتفت ليلى :

– انتظر . سيعود وشيكا . .

وأصبحا في السيارة من جديد .

كان رافع يحس حاجة للهرب من شيْ ما . وقال بجفاف :

– فلنذهب الى السينما .

– اوه . أجل ثمة فلم جديد في ميامي .

لم يكن ليعنيه الفيلم ابداً . كان يشغله الهرب من احاسيسه ، ومن كثافة تأثير عادة عليه . و . ومن رغبته الفجائية الشديدة بزوجته .

جلسا الى الظلمة في مقصورة صغيرة . وجاهد رافع في أن يتابع الفيلم ، وان يغالب هذا الدافع الطاغي الذي يحركه الآن ، لأن يغازل زوجته . أجل يغازلها . وكأنها فتاة غريبة .

وكره أحاسيسه . .

يجب ألا يفعل . يجب . .

وتعجب لتناقض مشاعره . وضاع منه تسلسل الفيلم .

كانت عادة تجلس الى جانبه ، فلا يفصل بينهما سوى مسافة قصيرة ، وراح يقاوم في نفسه رغبة أن يلمس يدها . .

«يجب ألا أفعل ! »

كانت الى جانبه ، وفي عينيها تلك الابتسامة التي لايميزها سواه ، وتمنى لو انها اقتربت منه . وزاد من سرعة السيارة . .

– الى اين ؟

لم يجبها . كان يدرك أحاسيسه بعمق . ويعلم أنه الان لا يعاملها كزوجة . . بل لقد كان في سلوكه أسلوب عاشق . . ووقاحة ذئب !

تخلصت السيارة من العاصمة . وسلكت طريقاً مشجراً معتماً ، كان رافع يدري أن في نهايته منعطفاً يذكره . . منعطفاً قاد اليه قبل سنتين فتاة اصطادها . .

ونظر اليها في المرآة المثبتة أمامه :

كانت الابتسامة ماتزال في ملامحها – ابتسامة واثقة معتدة . .

ولم يجد المكان الذي يريده . . فأوقف السيارة .

– ها ؟

– تعالي . .

كان صوته خشناً فيه رعدة واضحة .

وضحكت غادة بحرج ، ورأى شفتيها تختلجان . وبدا له أن حمرة ما تعلو خديها . .

لم يتصرف قط بهذا الشكل .

وسمعها تقول :

– عجباً ! أية نزوة هذه ؟ !

بدت له وهي تقول ذلك ، وكأنها فتاة غريبة حقاً .

أخذها بين ذراعيه ، وسمعها تهمس تحت شفتيه :

– رافع !

ولم يدعها تكمل . شد على فمها بكل ما يملك من عنف ورغبة وتملك وغضب . . واستمر . . متكالباً . . مخموراً . . منتقماً :

وأحس باختلاجها . . بحاجتها لأن تتنفس . .

كان مفتح العينين . يراقب بقلق آثاره في ملامحها ، واحس أن الابتسامة الواثقة تختفي في وجهها .

وارتجى الجفنان ، وناما . . فتريث . .

ترك لها أن تتنفس . وامتلأت عيناه بعينيها . . واحس لذلك راحة عميقة غريبة !

كانت غادة الآن تتفجر رغبة . انه يرى ذلك واضحاً في أنفاسها المتدافعة . . وخديها المحمومين . . واستسلامها المترن المتوقع . .

اثارته هذه الحقيقة من جديد . فزاد سعاراً . . وانزلقا على مقعد السيارة . . ولم يعد يسمع غير لهاث مكتوم !

* * *

(٦)

الصبح . . .

الضحى . . .

الساعة العاشرة . واليوم هو الجمعة . وهي على سريره غارقة في نوم هادئ . وهمس لنفسه مرة أخرى «إنها لي . . »

كانت يمينه تحت رأسها . وشعرها منتثراً على الوسادة ، وعيناها غافيتين في راحة طفولية .

واستخف بكل مخاوفه السابقة . وحلف ان لن يعذب نفسه مرة أخرى ، بذلك الولع السخيف في أن يختبرها .

وكرر في نفسه : «لي . . . لا يمكن أن تكون لسواي . . ! »

ومن يدري ؟ قد يكون المتعطف في الطريق المشجر . . . وساعة هوسة الغريبة . . قد تكون ليلة أمس قد تركت طفلا . . و . . . رن جرس التليفون . فسحب ذراعه من تحت رأسها ، وراح يرد على المتحدث . ثم عاد

كانت عيناها ترنوان اليه بقليل من تعب . وسألته :

– من يا رافع ؟

– الفراش . يسألني ان كنت سأذهب الى العيادة أم لا ؟ . .

يا لصوت التليفون ! كم كان رهيباً عندها ، في نصف نعاسها . لقد همس بها هاتف مع رنة الجرس «إنه هو . » فأفاقت مذعورة ماذا لو رد رافع عليه ؟ . أجل ماذا ؟ . . »

سيغلق المجهول الخط ، وعندها يتصل بها ، سيروح يخمن أنه زوجها . .

ورافع ؟ ما الذي سيخمنه ؟ ألن يشك ؟

ضبطت في خواطرها نوعاً من الشعور بالاثم ، أنها تفعل ذلك من ورائه . وماذا فيما تفعله ؟

كانت تحس ، أن التليفون سيفقد معناه ، إن هي اطلعت زوجها على سره . وفكرت : لم تندم . . لم تحس قط بالندم لزواجها من رافع . صحيح ، انه لم يكن الفارس الذي حلمت به . ولكنه مع هذا . . رائع . . رائع بشكل ما . . وابتسمت . .

تجربة الامس ماتزال في اهابها – تجربة فريدة أنستها حتى تحفظها من أن تصبح اثماً . وقالت لها خواطرها : لن يتزعج رافع لو علم بسر التليفون . . .

– وما أدراني ؟ قد يثير ذلك غيرته . .

لم يخطر لها قبل أن رجلاً كرافع يمكن أن يغار . وقالت لنفسها : «ومع ذلك فالغيرة دليل حب ! . »

وراحت تحاول أن تستذكر لرافع موقفاً ما كان ينم عن غيرة . . فلم تجد سوى أنه سألها مرة بعصبية عن ماضيها . .

وبدا لها انها تكره أحياناً في زوجها ، هذه الثقة الزائدة بنفسه . . بل حتى بها . وتساءلت : إن كانت ترضى لزوجها ملامح الغيرة . .

أبداً . . .

تمنت لو ان المجهول خابرها الآن . . ألن يكون ظريفاً أن تدعو رافع ليصغي معها الى هذا الهذر الغريب ؟ . ثم تروح تبيت معه كيداً لهذا الرجل الذي يلعب من وراء التليفون لعبته ؟

وتحمست لفكرتها . .

على انها ما لبثت أن انتبهت الى أن المجهول لم يتصل بها مرة ورافع في البيت . . لم يتصل بها صباحاً أصلاً . . ولكن . . ما أدراها انه لم يفعل ؟ أوه . . لو فعل حقاً . لكان أخبرها . . .

وعاد ذهنها من جديد يؤكد لها أن المجهول لابد يعرفها . . يعرفها ويعرف زوجها . . يعرف كل شيء عنها . . وهو يحاول عن هذا الطريق أن يلعب لعبته السخيفة . . اللعبة التي تغدو — إذا صح ذلك — مهينة أشد ما تكون الاهانة .

المشكلة : من يكون ؟ من يمكن أن ترشحه من معارفها لهذا اللؤم ؟ . من منهم له هذه الوقاحة . . والجبن . . بل حتى الذكاء ؟

من ؟

ألا يمكن أن يكون المتحدث شخصاً يعرفها ولا تعرفه ؟ واحداً من مئات الناس الذين التقتهم . . واحداً من معارف زوجها مثلاً . . شخصاً يريد العبث . . أو الانتقام ؟

كانت من على سريرها ، ترى الى زوجها في (الهول) يحلق لحيته ، وهمست لنفسها : «يجب أن أخبره ! . . » .

وقامت من مكانها :

ألقت على كتفيها غطاء صوفياً ، وخرجت اليه :

— رافع . .

– هم . .
– إسمع يارافع .
كان يضع الصابون على وجهه ، ويحدق في المرآة . وشعرت بالتردد . . عز عليها أن تفرط بلعبتها . فمن يدري ؟ لعلها واهمة . . لعل الرجل . .
وقال رافع :
– ماذا ؟
– ألن . . ألن تذهب الى العيادة ؟
– لماذا ؟
– اذا ذهبت ، فاشتر لنا فاكهة . فلقد نفذ ما لدينا . .
ورأته ينظر اليها . .
ترى هل اكتشفت انها لم تكن تريد ما قالته ؟
هتفت قبل أن تكشف ملامحها ترددها :
– ثم . .
– أجل ؟
– هناك شيء آخر . .
– هم . .
وقالت لها خواطرها : «هيا لا تتردي ! :»
– ثمة شخص يخابرني في التليفون ! .
كادت أصابعه تتجمد على الفرشاة في يده . وخشي أن يستحثها ، خاف أن تفضحه لهفته . فقال وهو يجهد أن يتظاهر بعدم الاهتمام :
– حقاً ؟
– لقد فعل ذلك مرتين . هكذا : يقول «مساء الخير» ويروح يثرثر . .
– يثرثر ؟ ماذا يثرثر ؟
– اوه . . لا شيء . . مجرد كلام : انه يزعم انه اتصل بي صدفة . . ويقترح ان اصغي اليه .

- وبعد ؟
- وبعد ، ماذا ؟

التفت اليها ، وقال وهو يتصنع الضحك : يمثله تمثيلاً :

- الم يسيء الادب ؟
- ابداً .
- اذن لماذا تقولين لي ذلك ؟

لم يكن ينظر اليها . كان ذهنه يعمل بسرعة . . يبحث بين الالفاظ . . يقايس ويحلل . . وجاءه صوتها ، فيه رنة غضب :

- دون داع . . انني آسفة .

فضحك مهوناً وقع اجابته الخشنة . . وفي أعماقه كان ينبض الف سؤال . . والف فكرة . وخطر له للحظة أن يتباهى ، فيخبرها بحقيقة الأمر ، ولكن الوضع الجديد ، أمد خياله بالمزيد . ودفع الى أعماقه شعوراً بالتحدي . وسألها :

- ألم تعرفي ؟ أقصد : الم تقدري من يكون ؟
- ومن أين لي أن اعلم ؟

كان صوتها يعلن احتجاجاً واضحاً . فقال :

- اذن ما الذي تريدينه مني ؟
- لا أريد شيئاً . .

غضبت . رآها تقوم ، فتدخل الغرفة من جديد . فابتسم لنفسه ، وسأله ذهنه : «والان ؟ هل ارتحت ؟»

تنفس بعمق . . ومضى يكمل حلاقته بسرور .

* * * * *

أنتظرت غادة التليفون بقلق .

ان عليها أن تتأكد . . أن تتوثق من أن المجهول شخص لا يعرفها . .

وعادت مرة اخرى تستعرض الوجوه :

من منهم ؟ من ؟

هذه الومضة في ذهنها . لو تتفتح !

شيْ ما يجعلها شبه واثقة من جديد ، من أن في الصوت الذي تسمعه . . نبرة ما . . موضعاً ما من اللجهة . . قل . . هو لون خفيف . . يوحي اليها . . بان الصوت ليس غريباً . . ولا جديداً .

«انا اعرفه . فمن يكون ؟»

في ذلك اليوم . رن جرس التليفون أربع مرات . فكانما في الصدف نزق ما ، لان تعبث بمشاعرها : خابرتها مديرة المدرسة ، ثم رن الجرس بعد ذلك ، وانقطع قبل أن تصل الى التليفون . ثم اتصلت بها أمينة تعاتبها . . فرجل يسأل عن رافع .

وعند السابعة سمعت صوته :

– مساء الخير . . .

«أعرفه . . . أعرفه . . هذه النبرات ليست غريبة عني . .»

وسمعته يقول :

– والان . . ها نحن مرة أخرى . . وهكذا : إن البداية دائماً شيْ صعب . . ماذا سأقول ؟ كلما توجهت الى التليفون ، شغلني هذا السؤال : ما الذي سأقوله ؟ ثم إنني اعد لك حديثاً . . أرتبه . . وأنمقه ، ولكنني إذ أتصل بك ، أجد أن من الاحسن ألا أعد ماسأقوله . لا أدري . أحس كأن الاعداد كفيل بأن يفسد الاطار العام الذي تقوم عليه علاقتنا . .

وسكت .

وقالت غادة لنفسها : «مراوغ . . انه لمراوغ . . ودجال . .»

واستطرد المتحدث :

– والان . . دعني أكشف لك شيئاً . أمس ، وعدتك ألا أبحث في الدليل عن الاسم المقابل لرقم التليفون . انني آسف . لم ألتزم بوعدي . وإذا أردت الحق إسمعني . لقد كنت أستجيب لفضولي وأنا اقول لنفسي : أبحث عن الاسم . فاذا وجدته ، فلن

أخبرها بما فعلت . وها انتبذي ترين أنني لم أستطع . أجل لم أستطع كف نفسي عن البحث في الدليل ، ولا أن اكذب عليك . إنما . . بالمناسبة . . من هذا «الحاج صابر الطائي»؟ أيكون أباك ؟ زوجك ؟ أيكون هذا الحاج زوجك ؟ أتدرين ؟

لم تعد تصغي اليه . كانت تفكر : ماذا يعني لها هذا الاسم «الحاج صابر الطائي» . . بدا لها انه ليس غريباً . . .

أجل . . أوه ! !

وابتسمت . . باللنكتة الظريفة . . إنه الساكن السابق للمنزل الذي يسكنونه الان . وهكذا فالتليفون مازال مسجلاً باسمه في الدليل .

كان المجهول يتحدث ، وهي غير منتبهة . ذهنها يعمل . أفلا يدل هذا على أن المجهول لا يعرفها حقاً ؟

وشغلها صوته عن أفكارها :

– ثقي يا آنسة إنني سأكون مخلصاً لنفسي . . ولن أكلفك أي ازعاج أو حرج . . ولن تؤثر معرفتي بك – مهما ازدادت – على تصرفي . على أنني ماأزال أفضل أن يكون الحاج صابر أباك . . فليس . . ليس لائقاً أن اتخيلك زوجة لحاج . . وإذا سمحت ؟ فانا لا أطيق التفكير بأن تكوني متزوجة . . لا ريب انني وقع فيما اقول . . وعندي أنني أحتمي منك بجبن وراء سماعة التليفون . .

سكت المتحدث مرة أخرى . . ثم استطرد بعد هنيهة :

– والان يا آنسة . . يخطر لي شيء آخر . . انني أتساءل ترى ما اسمك ؟ لقد حاولت عدة مرات أن افترض لك اسماً ما . . اسماً يتناسب والصورة التي لك في مخيلتي . ولا أكتمك أنني وجدت ذاك الاسم . . ولكم سأكون سعيداً . أقول : انني ما أزال أمني نفسي : أنه ، أليس ممكناً ؟ أما من صدفة مباركة تقودني لان أحمن اسمك الحقيقي ، كالصدفة التي قادتني للاتصال بك ؟

ووجف قلب غادة . قالت في نفسها : «إن ذكر اسمي حقاً . . فهو يعرفني . . لابد أن يكون ممن يعرفونني . .»

وأصغت :

– واسمعي يا آنستي . أدري أن احتمال توفيقي في ذلك جداً ضعيف . فالاسماء تطلق على الانسان دونما أي تبرير . . بينما ترين . انني ابحث عن اسمك بطريقة عقلية : لقد حاولت أن أربط بين انطباعي عنك . . وما يلائمه من الاسماء . وبهذا ترين أنني لن أوفق . إنما . . من يدري ؟ حسناً . دعيني أروي لك كيف توصلت الى هذا الاسم الذي أعتبره مناسباً : أول اسم خطر لي هو «ليلى» . كان ذلك محض ارتجال . . محض إيحاء ماله مبرر . ربما لان اسم ليلى اسم شائع ، وهو عدا هذا يحمل وراءه قصة «مجنون ليلى» . . وهذا بالضبط ماجعلني أتخلى عنه . وسيكون مؤسفاً حقاً ، أن يكون اسمك الحقيقي «ليلى» ، فاكون بذلك قد خذلت سلامة الايحاء الاول الذي خطر لي ، وكان يجب أن أعول عليه .

وفكرت غادة : «هذا الخبيث سيستعرض أسماء ، فان ذكر اسمي بينها ، وتجاوزه ، أو توقف عنده ، فستكون لعبته مفضوحة ! .»

وسمعته يقول :

– واستبعد أن يكون «سعاد» أيضاً . صحيح انه اسم شائع . . و . . لطيف . . ولكنني لم أرتح لان يكون اسمك «سعاد» ، فهو لكونه شائعاً يبدو لي غير لائق بك . . ويخيل الي انني ابحث لك عن اسم ذي نكهة خاصة – اسم متفرد ، كالانطباع الذي أحمله لك في ذهني . . صدقاً أو كذباً . . ولقد مر بذهني أن يكون «هيفاء» . . فوجدته يحمل مبوعة . . «وسلوى» . . وقد توقفت عنده قليلاً ، لولا أن بدا لي أن فيه مسحة من حزن . . من ضعف ، وهذا ما زهدني فيه . هذا بالاضافة الى انه ، لاحدى قريباتي ابنة اسمها «سلوى» ، عمرها سنتان .

أوه . . انني اطيل عليك . فلأختصر . . لقد أسميتك يا آنسة . . أسميتك :

وجف قلب غادة «هد . . . سيقول غادة» وأصغت :

– حسناً لقد أسميتك «غلواء» . ها ؟ لاريب أنني لم أحرز الاسم الحقيقي . . كما ان الحاج صابر لا يمكن ان يطلق عليك اسماً كهذا . . يسميك عائشة . . فاطمة ، أما غلواء ؟

وفكرت غادة : غلواء . . اليس اسماً جميلا ؟

– ان هذا الاسم هو عنوان لديوان شعر . .

وتذكرت : أجل لـ (الياس ابو شبكة) ، ومر بذهنها المطلع . . «غلواء ما أحلى اسمها المعطارا . .»

أيقصد الغزل ؟ وسمعته :

– لو كنت حسب واثقاً من انك تتابعينني يا آنسة . . يا آنسة غلواء . . (وضحك) يبدو أن هذه الأسئلة التي تنقلت مني ، ستصبح مثل اللازمة التي يتعودها المعلمون في دروسهم . انما عليك ان تقدري موقفي . احياناً ، لا استطيع الهرب من فكرة انني اتحدث وليس ثمة من يصغي الي . . وذاك موقف مريع حقاً . أتدرين ؟ أعتقد أنه سيأتي يوم تجدين فيه ألا ضير من ان تتخلي عن موقفك من حديثي . وماذا أقول ؟ انني لأحلم بساعة كهذه . أعرف أن ما اطلبه صعب . بل ربما قلت في نفسك : «والآن ها هو يطمح في تسامحي» وستظنين بي الظنون «وذاك سيكون مدعاة لحزني . انما اريد ان اوضح لك يا آنسة . . يا بنت الحاج صابر . . انه تمر أحياناً ظروف تقتضي فيها طبيعة الحديث رداً ما . . ولو مقتضباً . . ولا تحسبيني استدرجك . . أف . . انها قضية ثقة ، ولست من التفاؤل بحيث ادعوك لأن تثقي بي . . ابداً فمن حقك أن تكوني حذرة ، وانني لأقدر لك ظروفك بصدق . لقد قلت لنفسي : أنظر يا هذا ، أنت يروق لك مثلا ان تتخيلها غير متزوجة . . إنما قد يكون الواقع غير هذا . . قد يكون لها مثلا زوج خشن الطبع . . ومن حقها ان تفكر بانه لن يفهم معنى ان تستمع زوجته الى رجل لا تعرفه ، وبهذا الشكل . . دع عنك أن تتحدث اليه . وفكرت أيضاً ، يا آنسة غلواء ، أنه من حقك أيضاً أن تقدري انني لست كما أدعي ، أقصد : لست كما أصور نفسي : رجلا لا يعرفك ، ومن حقك ان تحذري من أن أكون واحداً تعرفينه ، يتقصد الايقاع بك . . أجل من حقك أن تفكري في هذا . . فما أدراك أنني لست واحداً من معارفك . . أجل . . ما أدراك ؟

وسكت الرجل رويداً . وذهلت غادة . . وقالت لنفسها «انه يقرأ افكاري . . يا للعجب ! !» وسمعته يستأنف :

– والمشكلة : انه اذا ما افترضنا انك اقتنعت بهذا السؤال ، وتبنيته ، فما الوسيلة التي تمكنني من أن اثبت لك العكس ، في الحالة التي اجدني فيها ، من الفضول بحيث لا اتقاعس عن محاولة ان اعرف عنك المزيد ، وأن امارس بطرافة هواية التفكير بك ، ولذة ان اجسد خيالي في اوصاف محدودة . وهنا تكمن المشكلة الادهى . إذ افرضي انني حدست صدفة شيئاً عنك يطابق الواقع . خذي مثلا اسم غلواء . الحقيقة انه اسم غريب ، ولا احسب انه ثمة كثيرات يحملن هذا الاسم . ولكن : لنفرض انه اسمك الحقيقي في حالة كهذه ، أيمكن أن تبعدي عن ذهنك التفكير بأني اكذب عليك ؟ ستقولين : إنه يعرفني حتماً ، ويحاول بسماجة ان يتظاهر وكأنه يكتشف الأسم اكتشافاً . اليس ذلك صحيحاً ؟

واختلطت الامور على غادة .

زعزع حديثه كل مخاوفها . ورد بغموض على اسئلتها . ومع هذا بقيت تحس ان في الصوت . . في النبرة شيئاً ما . .

– لقد اطلت عليك اليوم ايضاً . فاسمحي أن انتهي .

واغلق التليفون بهدوء .

كان كل ما يحسه ، مجرد إعجاب بنفسه . وغادر العيادة خفيف النفس مرحاً . .

* * *

(٧)

رمت الاوراق من يدها . ولم تعد تطيق قراءة الخطوط المتأنقة التي خطتها لها طالباتها في دفاتر الانشاء ، ولا هذا العمل الملول الذي يقتضيها أن تصحح جملاً ركيكة مرتبكة ، فتؤشر هنا ، وتشطب هناك ، ثم ماتلبث أن تضع رقماً . . وتوقع . . ودفتر آخر . . وآخر . . .

رتابة . .

تكره كل عمل رتيب ليس فيه جدة .

التكرار . . والدوران !

فما بالها ، وهي مدرسة ؟ واحدة من الاف المدرسات ذوات الاثداء المترهلة . . العانسات . . المرضعات . . الثرثارات ! ؟

انما . .

ماذا بوسعها ؟ ماذا كان يمكنها أن تفعل ازاء كل ذلك ؟ بأن تكون اكثر جدوى . . وأن تشغل حيزاً أوسع من الحياة التي تحياها . . وأن يعطى لها المزيد من القابلية على التفتح . . امتصاص الدنيا . . دقائق العمر الفرد الذي تعيشه ؟ !

ألم تصر على مزاولة عملها كمدرسة بعد الزواج ؟

ألم ترتعب لمجرد التفكير في أنها قد تفقد عادة العمل والحركة ، فتقبع دون مركز ولا تجاه ، ولا ارادة . . وتطفو . . تصبح زوجة حقاً . . وأما :

«ما الذي يجب أن أفعله ؟»

أجل ماذا ؟

لو استطاعت أن تعين في حياتها شيئاً ما ، تعتبر نفسها ، المسؤولة عن أنها لم توجهه بالشكل الذي تريد . . جهة ما ، تجمع عندها رفضها واستنكارها : كأن تشكو من أن أهلها مايسروا لها الدراسة . . أو ماقتحوا لها باب أن تتصرف كما تريد . . أو . . أو أن حائلاً ما ، وقف دون رغبة كبيرة من رغاب حياتها . . لو أنها أحبت مثلاً ، ولم يعط لها أن تنال من تحب . . . لو أنها لم تستطع أن تتزوج من رافع مثلاً . . .

وظلت ترنو الى الدفتر أمامها — الى الجملة التي أبقت فوقها قلم الحبر الاحمر ، فامتصت الورقة منه بقعة حمراء أعرقت كلمتين . .

أطبقت الدفتر . وقامت . والتليفون صامت .

أيكون هذا سر ضجرها ؟ أهي برمة لان يومين انقضيا دون أن يتحدث اليها ؟ دون أن تسمع هذا الصوت المجهول الذي استطاع ، وتحت مسمع من إرادتها ، أن يملك عليها بعض ذهنها وخيالها ؟

لم تعد الساعة تأبه للملاحظة اللهفة في نفسها ، لان تسمع من جديد صوت

المجهول ، ولا عادت تستجيب لمخاوفها في أن يكون شخصاً تعرفه أو يعرفها . . في أنه لابد يستغفلها ، ويلعب عليها !

أبداً . كان احساس طفلة . نفس إحساسها يوم كانت طفلة ، وأرادت أن يشتروا لها لعبة .

اللعبة تريدها !

تريد الرجل أن يتحدث . ومشكلتها أنها الساعة لا تستطيع أن تبكي . . أو تزعق . . أو تكسر الاواني . . أو تنقطع عن الطعام . . وذلكم هو السر في الضجر اليابس الذي تعانيه منذ عادت اليوم من المدرسة .

الساعة تعبر السابعة . وهي مشدودة الى البيت ، ما أن يرن جرس ، حتى يرتعد عصب في أعماقها ، وتهرع مثل بلهاء :

– هلو

صوت فتاة :

– عيادة الدكتور رافع ؟

– لا . . هذا المنزل . .

– العفو . . ما رقم العيادة ؟

وتغلق السماعة ، وتلهث . وتتمنى لو كان لها من الارادة ما يجعلها تغادر البيت ، فلا تشد نفسها الى هذا الهوس العجيب .

والساعة السابعة والنصف . وهي تباعد الاحساس بذل التفكير في أنه مل لعبته . . تخلى عنها ، أو أنه يتعمد العبث بها ، طالما وجدها عند التليفون أبداً ، تنتظره ساعة يشاء . . لتصغي اليه !

والساعة الثامنة . وجرس الباب يرن ، فتقوم مفزوزة ، وتفتح . . طالعتها وجوه ثلاث من صديقاتها : نعيمة . . أمينة . . احسان . .

– اهلاً

وملأن الممر ضحكات . .

- مرونا من هنا ، فقلنا . . نسلم عليك . . ونشرب كوباً من الشاي . .
- فقط ؟ أهلاً . . . أهلاً وسهلاً .

حمدت للصدف أنها انقذتها من وحدتها وترقبها . وامتلأ الهول غنجاً وعتاباً . . وألف كيف . . وأين و . . .

كانت نعيمة تحمل في ملابسها جنيناً ، وفي عينيها دلالاً وضحكة داعرة . . . أما شعر امينة فهو مصبوغ كعادته . احسان اقربهن لنفس غادة ، فراحت ترنو اليها بعذوبة :

- مشتاقة ياحسان . . لكن جميعاً . . عجباً . ما بالكن لا تسألن عني ؟

واحتواها لغط . وانزاح عن صدرها وطء كابوس . فهي خفيفة تستعيد ثقتها بارادتها

- لحظة واحدة . . سأعد لكن الشاي . .

وقامت فتبعتها ضاحكات عابثات . ورن جرس الباب ، فهتفت احسان :

- لا عليك . . سأفتحه أنا .

وردت غادة باعتزاز . .

- انه رافع حتماً .

وضحكت . لم تدر لماذا . وأضافت نعيمة :

- والله لقد استطاع الدكتور أن يلزمك البيت . ما كنا نتصور أننا سنلقاك . . تصوروا : غادة والقعود في البيت !

احست غصة خفيفة لحديث زميلتها ، فصاحت :

- من يا احسان ؟
- انه الحليب ياغادة :

وتناهى صوت إيصاد الباب ، فهتفت :

- عجباً ! كم الساعة ؟ لقد تأخر اليوم ؟

وانسرق الحديث الى المدرسة . . والمديرات . . ثم الى الاطفال والانجاب . .

وراحت نعيمة تعابث غادة حول الحمل ، والحذر من الانسال ، وإصرار الاهل ، واستعجالهم الوريث الذي يحي اسم العائلة .

فقالت غادة وهي تصب الشاي :

– اذن . فانت الآن تحملين في بطنك اسم العائلة ؟

– كما ترين . .

– لا بد انه اسم كبير . ما شاء الله . . يكاد يمزق ملابسك . .

– وأنت ؟

– أبداً . لا نريد لنا وريثاً . . لسنا في عجلة .

وهتفت أمينة :

– ولكن ما تفعلنه حرام يابنات . . كيف ؟

وهتفت احسان بدعابة :

– اتريدين ان اشرح لك ؟

وضحكن .

ورن جرس التلفون .

وللحظة ، خيل لغادة ان صمتاً يقطعها عما حواليها . ورأت وهي في ذهولها احسان تلتقط السماعة ، وسمعتها تقول : «هلو . . هنا منزل الدكتور رافع » تطلعت غادة بذهول . .

– هلو . . هلو . . .

وجاءها صوت احسان وهي تعيد السماعة :

– لقد اقفل الخط !

– من ؟

– لاأدري . اقفل الخط . لابد أنه أخطأ الرقم .

وجلسن يرتشفن الشاي .

لم تعد غادة تستطيع الارتباط بهن . كانت واثقة انه هو ، وأنه لابد أدرك اختلاف الصوت ، فاغلق التلفون . ولكن . .

ياللغباء ! لقد اخبرته احسان بعنوانها بكل بساطة . .
وركبها الحنق . كان يجب أن تسرع هي الى التلفون فلا تترك لها أن . . أف . .
حاولت جاهدة أن تخرج عن عصبيتها . وأن تعود الى سابق مرحها معهن .
سألتها نعيمة :
- ما بك ؟
- أنا ؟ لا شيء . كم الساعة الآن ؟
- التاسعة إلا ربعاً . .
- لقد تأخر رافع . .
وقامت الى التلفون . وطلبت العيادة ولم يرد أحد . .
ضايقها ان يبدو القلق عليها . فحاولت أن تبتسم . وكانت اعماقها ذاهلة . .
ما لبثت امينة أن نبهت زميلاتها الى تصرم الوقت . فقمن يودعنها . وعندئذ ، رن
ن جديد جرس التلفون :
- دقيقة واحدة !
وشدت السماعة الى أذنها :
- هلو . .
- عادة ؟
كان صوت رافع . وسألته بضيق :
- ما بالك تأخرت ؟ لقد تجاوزت الساعة التاسعة !
- مريضة . . كان ثمة مريضة . .
قاطعته :
- حسناً . تعال إذن بسرعة . لدينا ضيوف .
وانهت المكالمة . وقالت لزميلاتها :
- انتظرن رويداً . . وسنوصلكن بالسيارة . .
. . . . . .
فتحت له الباب . فسألها :

- من ضيوفنا ؟
- هش . . بعض المعلمات . .

فرد يقلدها هامساً :

- من منهن ؟
- اوف . .

وأسرعت أمامه . أما هو ، فركبه احساس متأنق . واستشعر خفة لان يبدو كأحسن ما يكون أمام زميلاتها . كان يقدر دائماً ان مرحه يقربه من كل أنثى . وكان يدرك أن سلوكه هذا يؤثر على غادة . . على الاقل يزيدها اعتزازاً به . وأدرك سبب الصوت الغريب في التلفون .

تشاغل قليلا لدى المدخل ، ثم دلف الى (الهول) حيث كانت تتردد ضحكات حلوة . ووقف لدى الباب ، وهتف بحيوية :

- مساء الخير .

وطافت عيناه على الجالسات : أمينة يعرفها . . والاخرى . . أما الثالثة . . ومد يده مصافحاً ، وقالت غادة وهو يصافح الثالثة :

- ألست احسان . زميلتي ايضاً . .
- اهلاً وسهلاً .

وجلس .

ضايقه ألا يجد شيئاً مرحاً يقوله . فراح يحدق باصرار في وجه احسان وابتسم ، وهو واثق انها سترد على ابتسامته ورآها تبتسم محرجة ، وتطرق ، فقال مزهواً :

- لم تعد نراك ياست أمينة . .

وسمع المعلمة تقول شيئاً لم ينتبه اليه . وقال :

- ألست احسان زميلة جديدة ؟
- بل نحن . . أنا وغادة . زميلتان منذ الجامعة . .
- اوه . .

هتفها متخابثاً . وأضاف . .

- حقاً . . احسان . . لقد حدثتني عنك غادة . .

وباتت الدهشة على وجه زوجته ، وضحكت مدارية ، أما هو فاستطرد مخاطباً غادة :

- أقول لها ما حكيت لي عنها ؟

ضحكت غادة وقالت :

- لا عليك يا إحسان . . انه يمزح !

وتطلعت اليه احسان ، فقال :

- كما ترين كنت امزح (والتفت الى زوجته) أنت لم تحدثيني عنها قط ؟

- لا .

وتساءل في نفسه ان كان قد أحرج غادة . ومع هذا قال :

- كيف لا ؟

- حسناً . اذن فقل ما حدثتك به . .

فضحك بخبث . وقال :

- لست جادة . فلا تتحدثي (والتفت الى احسان) كنت أمزح !

أدرك جيدا أنه افسد الجلسة . فقد فترت نظرات المعلمات . .

لكنه حاول التماسك .

وعند العاشرة . أوصلهن بسيارته . وخلا الى زوجته .

كان قد انقطع عن التليفون منذ يومين . فعل ذلك عامداً . وهو مقدر بان ذاك كفيل بأن يزيدها فضولاً وشوقاً . واليوم لم يستطع المضي في تنفيذ قراره بأن ينقطع اسبوعاً كاملا . فاتصل ، وسمع صوتاً يقول له «هلو . . هنا منزل الدكتور . . »فأقفل الخط ، واعجبه هذا التطور ، فحمل نفسه الى البيت ، تستخفه أفكاره . .

وصلا البيت . وتناولا عشاءهما بصمت . سألها :

- ها ؟ ما بالك واجمة ؟

فما ردت عليه . أيكون أنها غضبت لمزاحه مع صديقتها ؟ وضايقه ان يدخلا خصاماً ، فتبعها الى غرفة النوم وسألها :

– عجباً . . ما بالك ؟

– لا شيْ !

كانت نبرتها يابسة مقتضبة . فضل ان يتجاهلها ، وقال ضاحكاً :

– لاشيْ . . كيف لاشيْ ؟

وفجأة أحس انه يريدها . ولدونما سبب ، تذكر ابتسامة احسان ، واقترب من زوجته ، وهتف بنبرة جديدة :

– ما الذي يغضبك ؟

كانت منحنية تمهد الفراش . فانتظر حتى اعتدلت . ووضع يده على كتفها . .

– غادة . .

– اوف . .

وانفلتت منه .

وانتابه للتو غضب هائل مشلول . فتهاوى على سريره وهو يلهث . وظل الليل يتمطى ، وهو لا يستطيع النوم !

* * *

(٨)

معذب طول النهار . .

لم يكن ليستطيع الخلاص من هذه الـ (أوف) التي سمعها في سكون الغرفة أمس . وكانت تذكره بطريقة ما بالـ (أوف . .) البرمة الوقحة ، لعاهر عندما يضايقها عميل سمج .

وخيل اليه أن حياته مع غادة تتمزق . وان مرضاً خطيراً يصيب هذه العلاقة . وأشتد غضباً .

لم يرد أن يفكر في أيما سبب معقول ، بل ، لم يستطيع حتى أن يفكر بهدوء . . كان ذهنه يسبح في رغباته ، وفي سوائل خائنة مسمومة . وخاف صوتاً في أعماقه يقول له : «لم تعد تحبك . . »

باتت له بشاعة أفكاره . بشاعة ان يطعن في رغباته ، وأن يبدو أمام نفسه ، مملولاً ، تعافه زوجته ، وتصده . . وأن يقضي الليلة مثل معتوه . .

أنهى تجواله في صالات المستشفى ، ثم انسحب الى غرفته . وقرع الجرس :

– ناد لي الممرضة عليه . .

كان واثقاً انها يمكن ان تعطيه ما يريد . وبروح منتحرة قال للفتاة :

– ستغدي اليوم سوية !

وضحكت عليّة بابتذال :

– أين ؟

– لا عليك . . عندما ينتهي الدوام !

– ولكن . .

أسكتها ، كانوا يخافونه . فلم يكن سهلاً . وتعجب هو للطريقة التي جعل الحديث واياها حاسماً .

حينما خرجت . فكر بتشف «آخذها للعيادة . . »

لم ير شيئاً . .

كان مخدراً . وكانت جدران العيادة دونما لون ، ودونما مقاعد . . ولا أثاث . . سوى التي صعد عليها . . وبسهولة . .

ولم يفق ، الا عندما استنفد نفسه .

ود أن يقول لها مباشرة :

– والآن أخرجي من هنا . .

كان يتبين لون جسمها العاري . وتقزز لامتلاء عجزها . وقال لها بلهفة :

– استعجلي . .

واغلق دونها الباب . ولم يعطها شيئاً . وبصق :
- قحبة .
وقال له خاطر حزين : «كلهن سواء . .» وأغمض عينيه عن صورة مفزعة ، رجل يقود غادة الى عيادته . . وينزع عنها ملابسها . . وخاف !
كان الشلل ، والخدر . . والرغبة في أن يأتي عملاً منتجاً قد تخلت عنه . . وأخذت افكاره تئن رويداً رويداً . . وعاد يحس العيادة حوله من جديد .
اشمأز مما فعل !
لم يكن قد تبق في جسمه غير طعم كريه ، وأحس على جبينه شعرة ملتصقة قدر نها من شعر علية ، وتعب . .
قال لنفسه : «انني مريض . . ما الداعي لكل ما فعلته ؟ ! »
- لا بأس على سبيل التنويع !
- ابداً . . انني أغار . .
واستذكر الـ (أوف) . . ورغبته في غادة . . وابتسامة احسان المؤدبة النظيفة . والتليفون . .
واحس بالغثيان . . لعل ما تناوله في المطعم لم يكن يناسبه . . وفكر في غادة . .
لا بد أنها ستدرك سبب امتناعه عن العودة ظهراً . وستقدر جيداً أنه غاضب . انه لن يصالحها . .
ولكن لا . أعاملها ، وكأن شيئاً لم يحدث . انما ببرود . . ولن . لن أقربها . . الف سنة . . العمر كله ! !
واستلق في العيادة على أريكة . وحاول أن يهدأ . . حاول أن يهون على مشاعره فعالات لاهثة اخذت بخناقه . . وربما أغفى رويداً . . على أنه أفاق والساعة قارب الرابعة . وقال لنفسه : «أنني بحاجة الى أن استحم . . »
وبدأ العمل . .
أخذ المرضى يتقاطرون . . فانشغل . حتى رن جرس التلفون :

– نعم .
– لماذا لم تعد الى الغداء ؟
كان صوتها ذا حدود . وطعم . وشخصية . وتردد . ماذا يجيب ؟
– كنت مشغولاً .
– اذن كان عليك ان تخبرني .
ولم يجد ما يقوله . ظل ساكتاً .
– هلو . .
– هلو . .
– ما بك ؟
– لا شيء . قلت لك كنت مشغولاً !
– لقد اتصلت بالمستشفى . فقالوا انك غادرتها مبكراً .
– هذا صحيح . والآن ؟
لم تجبه . فأضاف :
– سأتصل بك بعدئذ .
وأغلق السماعة .
كانت اللهفة في صوتها ترضي كبرياءه . وأعجبه أن تسأل عنه . وأن تقلق من أجله ، وأن تحس أنه غاضب ، فتحاول بطريقتها أن تسترضيه . وطابت نفسه رويداً .
أدخل الخادم مريضاً آخر . وآخر :
وعند الثامنة عاد من جديد الى نفسه . فتذكر التلفون . ووعده لها بأن يتصل بها .
كانت العيادة خالية . وعلى الجدار تقويم فيه صورة فتاة تحمل كلباً .
وأدار قرص التليفون ، وبين رنين الجرس ، تحير أن يكلمها بشخصيته ، أم يتصنع دور المجهول . وظل الجرس يرن . .

– هلو

واصطنع الصوت المعهود . وقال دون وعي :

– هل ابطأت عليك ؟

وسكت ، نسي أن يقول لها «مساء الخيرة كعادته . ولولا أنه تصنع الصوت المعهود ، لكانت حرية بأن تعرفه .

وانتظر رويداً . كان يعرف أنها لن ترد .

سره أن يظل التليفون صامتاً . وأن تظل تنتظر حديثه : وهمس منفعلاً :

– علواه !

وساد الصمت :

– من يكون الدكتور رافع هذا ؟ وبعده الحاج علوان . . وأنت ؟ من أنت ؟ وتردد هنيهة ، ثم استطرد :

– الا ترين ؟ انني لا استطيع الفرار من هذه الاسئلة رغم إدراكي بأن لا جدوى من إثارتها ، وأنه من الاصلح – بل من المتفق عليه ، أن أفكر فيك . . وأتحدث اليك بشكل مجرد . . كمخلوقة مجردة . . بلا محيط : بلا ظروف . . بلا ماض . . وبدونما علاقات . إنما . هذا صعب وحقك ! خذي مثلا أمس . لقد تعودت أن تكوني عند التليفون دائما ، ثم إذ بي أفاجأ بصوت جديد ، حتى لقد بدا لي انني توهمت الرقم . .

ورحت اتساءل في نفسي ، من تراها صاحبة الصوت الجديد ؟ وعدا هذا ، هل كنت أنت موجودة باغلواه ساعة تكلمت . . وهذا الدكتور . . من يكون ؟ تريدين الحق ؟ (وتردد هنيهة) أتمنى في أعماقي ألا تكوني متزوجة . . على الرغم من الحاج . . والدكتور . . فأنا احمل عن الزواج فكرة مظلمة . .

وسكت رويداً . وتذكر الـ (أوف . .) مساء امس . . وجاشت مشاعره بحزن مفاجئ وتمتم كمن يحدث نفسه :

– لعل الاجدر بي ان أكف اليوم عن الحديث . وألا فان مزاجي سيقودني الى أن أقول ترهات . . وهذا ما لا أريده . . لا أريد أن أحملك مزاجي المعكر ، وليس

إنصافاً أن أشكو إليك . . ولهذا فأنا متردد . . والقضية . . القضية ياغلواء أنني متزوج . . ومنذ أيام وأنا أعاني إحساساً كافراً يريد ان يقنعني بأن زوجتي تخونني . . هه ! يا للبلاهة . . رجل تخونه زوجته ! ! . (وضحك بمرارة . . واضاف) إنما . . لا تصدقيني . فأنا نفسي لا اكاد أصدق أوهامي . . ولعلها نزوة مني هذه التي تدفعني لان أدمع زوجتي أمامك بالخيانة ، أو . . لربما لكي أبدو أمامك مظلوماً . . ثم ماذا ؟ لابد أنك الساعة تقولين في نفسك : تخونك أو لاتخونك . . ما الذي ترمي اليه ؟ هذا ما يعذبني ، ماذا اريد ؟ في هذه اللحظة يبدو لي أن كل ما أتقاضاه هو ألا أحان . . ألا يخونني أحد . . أن تكون زوجتي مخلصة لي والا تنكبني الحقائق التي استسلمت لها . . ألا تهددني في إيماني . . ألا توحي لي بانها في لحظة ما يمكن ان تتركني . وتتخلى عني . . وهذا أيضاً ينطبق عليك تماماً . . لقد اتخذت لك في ذهني صورة ، صورة أعرف أنني أنا وحدي المسؤول عن تشكيلها ، وأدرك أيضاً أنك لست مسؤولة بأيما قدر ، وأنه لا يمكن أن يكون بوسعك أبداً أن تكوني ، ولو بشكل ما ، على النحو الذي أردته أو تخيلته . . ولفترة ، الى حين . . في عنفوان من انتشائي بالحلم الذي اردته – بالحقيقة التي افترضتها . . أروح أنسى كل المخاوف . . لا أفسح لها المجال . فأذا ما الفت حقائقي ، واذا ما درجت فترة ما على اعتيادها والتعامل معها ، بدأ الوسواس الظالم يتنابني فأخاف . . وأحس الظلم في خواطري ، وأبدو ساعتها غير مستعد أبداً للتنازل عن قلامة ظفر من أحلامي . لكم أبدو معقداً ! ! أليس كذلك ؟

وسكت .

كانت العيادة فارغة ، وآلة التليفون أمامه سوداء لامعة ، والقرص ، وأرقامه ، وزجاجات من الادوية يعلوها التراب . . والتقويم . . وباب الغرفة الموارب . . خيل اليه ان كل هذه الاشكال تعاني مثله انتظاراً وتآكلاً . . وأن الكون بأسره يبدو مثل ضرس مسوس . . فهتف بانفعال :

– والآن . ردي . . قولي شيئاً . . لن يكون إنصافاً قط أن تستغفليني بهذا الشكل وتتركيني اتمزق أمامك . . ردي . . أعرف انك ذات يوم ، ستسدين التليفون

بوجهي . . ستيرمين بحديثي . فافعلي ذاك الآن : صيحي بوجهي : كفاك ! قولي : إنني أضجر منك . . أعجب بك . . أ . . إنما هذا الموقف الجبان الذي تقفينه هو خيانة . . أجل خيانة . . والا أفلن يعنيك انسان يتمزق امامك . . وانت ببساطة تصغين اليه . . وتخافين ؟ . . أجل . أنت خائفة من أن تكشفي نفسك ، رغم انني أترك لك المجال لان تكذبي علي ماشئت من أكاذيب ، ربما أهون من هوسي ، فاي انسانة أنت ؟ أحياناً . أضع نفسي موضعك ، وأضعك مكاني ، وأقول : يا هذا ، لو سمعت فتاة تتحدث اليك كما تتحدث أنت ، أفتكون لك البلادة التي تجعلك تظل صامتاً أزاء ما تقوله ؟

وارتفع صوته :

– الن تردي ؟ هيا . . كوني شجاعة . . قولي لا . . قولي لن أرد عليك ودعني أنصرف . فلن أسمح لك أن تلعبي بي . . .

وتحيرت غادة . كان صوته على اذنيها يشتد ويشتد ، وكانت تحس أن ما تعانيه يشبه بشكل ما كابوساً ، ولم تعد تملك التصديق بأن انساناً ما يخاطبها . . بل هي قصة . . رواية . . ممثل بارع يتقن دوره ، ولأمرما كانت تحس أنه كلما ازداد هياجاً ، ازدادت هي حرجاً واصراراً . وكانت توقن انها لن تستطيع أن ترد عليه في هذا الخضم من اللجاجة والطغيان . . وكانت تتعجب ، انه برغم براعته لم يكن ليوقظ في نفسها تجاهه سوى الاعجاب ، والمزيد من الحذر ، وكانت لفرط ما تحسه من غرابة ، تخشى انها إن تحدثت فلن تكون موفقة في أن تقول شيئاً ذا بال . ماذا بوسعها أن تقول ؟

ساد الصمت برهة . ثم ما لبث صوته أن عاد الان بهدوء ووداعة :

– حسناً . غلبتني . انني موقن انك جديرة بالاعجاب . فاي فتاة سواك ، ما كان لها في مثل هذا الموقف الا أن تقطع المكالمة أو . . أو أن ترد . . (وسكت قليلا) اسمعي يا غلواء . . أعرف أنه سيأتي يوم تجدين فيه نفسك ترددين فيه علي مختارة . . أنا لا أتحداك . . إنما سيأتي يوم . .

وقالت غادة لنفسها : «حسناً . . وبعد أن أرد . . ترى بماذا ستطالب ؟» وسمعته يقول :

– والآن لعلي تحدثت بما فيه الكفاية . . إذن . .

واغلقت غادة التليفون . . لماذا فعلت ذلك ؟ لا تدري !

وقفت حائرة . .

كان أول ما خطر لها ، أن رافع لم يعد بعد . وهذه الساعة تقارب التاسعة . . وذهنها مشوش ، ولم يكن بوسعها وهي تدرك حقيقة تصرف زوجها ، أن تتذوق بهدوء لذة المخابرة اليوم .

وعادت تفكر من جديد : لقد أغضبته . . وغضبه كما يبدو لها الآن ، جديد . . لم تعتده . . انه لا يشبه ما ألفته منه سابقاً . قالت لنفسها : «لقد أسرفت . .» على أن خواطرها لم تلبث أن هونت عليها : «وما يدريني أنه غاضب ؟ لعله لم يغضب أصلاً . .» كل ما هنالك شعورها هي . . شعورها بـ . . .

بماذا ؟

غادرت مكانها الى النافذة . وبدا لها البيت موحشاً . والطريق مظلمة خالية . . وهي مبعثرة تتألم .

وضاقت بمشاعرها . فقررت أن تكون حازمة مع نفسها : اذا جاء رافع . . فستدلله . . أجل فلتحاول أن تنسيه غضبه . . ولن يثنيها عن ذلك تصنعه اللامبالاة . .

وابتسمت لنفسها . .

وراحت تنشق لدى النافذة أنسام الليل .

وفجأة أضاء الطريق مصباح سيارة .

ورأت زوجها يترجل . .

بدا لها نشيطاً . قوياً . . شاباً . . وامتلأت له جوانحها اعجاباً وشوقاً . .

. . . . . .

بهدوء

سار كل شيء بهدوء متوتر . .

لم تستطع ازاء ملامحه المقنعة ، أن تنفذ ما وعدت نفسها به . . لم يعطها هو المجال . فأرغمت على أن تظل ساكتة . وبدا لها عند العشاء أن من المناسب أن تسأله عن سبب تأخره ثانية . . فقالت :

– تأخرت كثيراً هذا اليوم !

فرد بأدب وهو يتناول طعامه :

– حاولت الاتصال بك فكان التليفون معطوباً ! .

هه ! الكذبة معدة مسبقاً

ورآها تصمت . .

وانقضت أمسية ثقيلة . . وتقضى اسبوع ! !

* * *

(٩)

. . . رباه

لقد بدا لي ان حياتي معه في سبيلها الى أن تتهدم . كان الليل يضخم لي مخاوفي . فتبدو لي وكأنها حقائق ماثلة . فانظر اليه ، وهو على قيد ذراع مني ، وأروح أتساءل : اتراه يعني كل هذا القدر الذي يعاملني به من البرود ؟ اتراني لم أعد أهمه ؟

ولكنني كنت احياناً أعود الى نفسي ، واناقشها بهدوء ، فاجد ان لامبالاته نفسها هي بالضبط دليل اهتمامه ، وكان هذا النمط من الاستنتاج وحده يرضيني ويريحني ، ولكن الى حين . . ولكن ، ما أن التقيه ، حتى تعود مخاوفي ، وينتابني شلل أفكاري ، فلا أجد من التصرف الذي أطيقه سوى أن اقابل برودة ببرود ، وانا ادرك

أن عنادي هو الذي يفسد الامر . انما ما الذي كنت استطيعه ، طالما كنت مقتنعة بأن تسحي به وهو غاضب ، أمر لا أطيقه ، ولعله لن يغفره لي هو ايضاً .

خلال ذلك ، كان المجهول لا يكف عن موعده . وكان هذا يسليني ، ويبني أن أنسى قلقي ، فكان حديثه يشغل تفكيري ، حتى كففت عن عناء الشك في أنه يعرفني ، واستسلمت له ، يتحدث كما يشاء . وكف هو أيضاً عن أن يلمح الى حاجته لأن أرد عليه ، لقد أصبح حديثه في الفترة الاخيرة ، اكثر طلاوة ، وإن كان أقل وقاحة وإثارة ، ولقد أنشأ في كل محادثة ، يطرق موضوعاً ، فكرة ما ، يستقيها من فيلم ، أو كتاب . . أو قصة ، فيروح يعلق عليها ، ويستطرد ثرثرة لطيفة تستدعي بعضها ، حتى تيقنت انني أصغي لرجل مثقف . . غريب الاطوار . .

كنت اتصوره رجلاً ذكياً بطراً . . لا عمل له . . سوى أن يملأ فراغ نفسه . . على أنني في غمرة من ضيقي كنت أرى في حديثه متنفساً .

أمس ناقش فكرة ، قال إنها لـ «جون شتاينبك» قرأها في احدى قصصه ، والفكرة تفيد ، أن الانسان لا يحتاج عقلاً ليكون طيباً انما العكس الصحيح ، ان الطيبة تحتاج الى قدر محترم من الغباء ! سماعتها أردت أن أقول : أبداً إن «شتاينبك» لا يمكن أن يقول شيئاً كهذا ، ثم ، حتى إن قاله ، فهو قول أخرق . ولكنني حين أفكر الساعة ، أجدني أقتنع بشكل ما ، أن الطيبة تحتاج حقاً الى قدر من السذاجة . . قل البساطة . . ولست مستعدة أن أكون طيبة بهذا الشكل . . وأتمنى لو كان لي أن اناقش هذا مع رافع . . هل الطيبة غباء ؟ سيقول لا . سينكر ذلك حتماً ، منسجماً في ذلك مع مجمل مواقفه الفكرية . ولكنه مثلي ، سيقرر في أعماقه ، أنه لن يرتضي لنفسه طيبة من هذا النوع .

هه ! مضى زمن ونحن لا نثير فيه نقاشاً . لقد بدأت حياتنا الرتابة التي نخافها . . كم كنا نتحدث في الايام الأولى . . كانت قراءة كتاب ، رؤية فيلم ، أي عرض طارئ ، يقتضي منا حديثاً . . ونقاشاً . . ثم اختلافاً . . وخصاماً . . أجل خصاماً حلواً منفعلاً .

أما الان ، فانني ادرك اننا كمن استنفد كل حيويته . . لم يعد في حديثنا أية اثارة .

أهو الملل ؟ التكرار ؟ . هكذا : كمن فقد شهيته لطعام ما . . . لمنظر ؟

وأقول لنفسي : لو أمكن فقط ، أن نستعيد أنفسنا ! . ترى هل أصبحنا نعاني سوء التفاهم ؟ أم هو العكس ؟ . لعلنا متفاهمان أكثر مما يجب ؟ وأروح افكر لرافع منصفة . أقول : ترى بماذا يمكنه مثلا أن يتحدث الي ؟ لنفرض انه عاد شأنه في الايام الاولى في احدى هذه الامسيات الملول ، وأتصوره يقرأ ، ثم ، يترك كتابه جانباً ويهتف كعادته : — هه . . سخافة !

— ماذا ؟

— أكبر سخافة . تصوري . .

ويقفز علي ما قرأ بحيوية ، وسرعان ما أتخذ موقفاً . فأحياناً . . بل أكثر الاحيان ، يكون ما يقوله هو نفس ما أعتقد ، ولكنني لمجرد أن التذذ بحيوية نقاشنا ، أروح أعمل الذهن ، في أن أجد جوانب تقف دون ما يراه ، وتلتمع عيناه ، ويرتفع صوته :

— كيف ؟

— أسمع !

وأفكر . وأراوغ . . ولن أعدم أن اجد حججي ، ولا يعدم النقاش أن يؤكد لي بدون أن أدري موقفي ، فانحزب ، بل أصبح موشكه على القناعة به ، وأنا أسمع صياح رافع :

— هراء . . . أنت تدرين أن ما تقولينه هراء !

كنت بحكم تخصصي في الادب أتعمد أن اقذف في وجهه ، كلما ادركني الحرج اسم مدرسة أو مصطلح فني . . أو اخترع له شاهداً كاذباً أنحله لـ (تشارلتن) أو (سانت بيف) أو (ديما ميل) أو (سارتر) فلا يلبث أن يصيح :

— سارتر ؟ أنا لا اشتري سارتر بفلس . . .

وكنت عن طريق هذه الاحاديث المشدودة ، استنبط المزيد لمعرفتي بزوجي ، وافهم روعة التناقض فيه وفي نفسي . كان يقرأ كثيراً . ولسارتر بالذات ، ولكنه لم يكن يكف عن شتمه ، مفترضاً انني اتبنى اراءه . .

– الوجودية اكبر دجل . . .

ويروح يسخر : هه ! . التجربة . . الاحساس . . الحرية . . الاختيار . . اسمعي يا غادة . اذكري دائماً أن سارتر أعور .

– عجباً . وماذا يعني ذلك ؟

– لو لم يكن أعور ، فلربما ما كان قال ما قاله !

لقد ذكر المجهول «الوجودية» في حديثه ايضاً . وسألني : أتقرأين لسارتر ؟ ما كان يوسعني أن أرد عليه . . .

والآن أفكر : سيعود رافع بعد ساعة على الاكثر ، وكعادته سيحمل لي وجهاً بارداً ، وما أن يتناول عشاءه ، حتى يأخذ كتاباً ويروح يقرأ . . .

لقد انقطع عن محاولة أن يتحدث ، أو أن يدعوني لزيارة أحد . . ان احداً لم يزرنا . . وماذا أقول ؟ أتمنى لو اعتذرت اليه . . أتمناه . . أريده ، وأدرك انني كنت وقحة حين صددته . . إن . . إن جسمي يتألم . لقد أصبحت رغباتي أكثر خيالاً ، وأوفر توتراً ، واتجاهاتها تتمركز . وأخجل . أعرف أنني أتعرض لامتحان . . ترى هل أملك أن أكون البادئة ، دون أن أحس انتقاصاً من كرامتي كانثى . ويسحرني شد التجارب الاخيرة . . في السينما . . في زاوية الطريق . . ويقلقني انني رغم تقتي ، غدوت أحاول التأكد من أن رافع مايزال يريدني ، وخلال ذلك أروح افكر بكاتبة تدعو أن تكون علاقة المرأة بالرجل علاقة الند للند بحيث تختفي معها كل اخلاق الرياء والخداع التي تسود علاقة السيد بالعبد .

وأقول لنفسي ، أنني أحقق ذلك . . ويرعبني أنني أحس احياناً فشلاً وشيكاً ، فأتساءل بقلق : اذن هل يجدر بي أن اهرب فابحث عن شكل آخر . . أم ابقى الافضل . .

ان جرس التليفون يرن . .

* * *

(١٠)

- هلو . .
- مساء الخير ؟
- من تطلبون ؟

فتلجلج . كيف تنكره ؟ وقال مرة أخرى :

- مساء الخير !

حاول أن يؤكد في نبرته طبيعة الصوت الذي اعتاد اصطناعه .

- فهمنا . من تريدون ؟

فاجاب وهو يتمالك نفسه :

- و . . ولكن ألست غلواء ؟

فهتفت بنبرة مستغربة :

- غلواء ؟ . . غلواء ماذا ؟ أي منزل تطلب ؟

وأدركه الحرج . إنها هي . . والصوت صوتها . فما الذي تعنيه ؟

- أليس هذا منزل الدكتور رافع ؟

- بلى !

كان في صوتها تردد واضح . وساد صمت :

- هلو .

- هلو .

- غلواء .

- والآن ؟ قلت لك أنت واهم .

وأسقط في يده . وضحكت غادة في سرها . وظل الخط متصلاً . وفكر رافع : انها تلعب . فقال متعجلاً :

- اصغي الي رجاء . .

فردت بصبر :

- ها انا مصغية . .

- تقولين : إن هذا هو منزل الدكتور رافع ؟

- أجل .

- عجباً . .

- . . .

- هلو !

وجاءه صوتها برماً

- إسمع يا هذا . انه لمزاح سمج هذا الذي تجربه !

فقال بحرج :

– والله انني لفي غاية العجب . . بصراحة ؟ يخيل الي أنك تكذبين علي !
– والان كفى سماجة . قل ما تريد ، والا فسأقفل الخط !
وانتظرت السماعة في الجانب الآخر . .
ماذا يقول ؟
– انما حلمك يا آنسة . . الحق إنني . . . اوه كلا . . لن استطيع أن اوضح لك . . إنني أعتذر . .
وتردد التليفون . وهمس رافع لنفسه «لن تلعب بي . .» كان يتخيل الان وقفتها ، وقد التمعت عيناها ، وكان يفكر : «ترى ما الذي ترمي اليه ؟»
وجاءه صوتها :
– ولكن . حسناً . . ماذا تريد ؟
– إسمعي يا آنسة . . منذ شهر . .
وقص عليها باختصار حكايته ، وقال وفي فمه بسمة معجبة :
– والان . فكما ترين . ما الذي استطيع قوله ؟ تصوري ، شهر كامل ، ثم ، بعد ذلك فجأة ، تأتين أنت وتسأليني ما أريد ، حسناً . ما الذي يمكن أن أقوله ؟
– يالها من حكاية غريبة !
– ولكنها الحق . أحلف لك على ذلك .
– . . . .
– الا تصدقيني ؟
– ولكن ما شأني أنا ؟
– ابداً . انني أعتذر انما أرجو أن تقدري حرجي .
– أتقول إنك كنت تتصل بها في مثل هذا الوقت ؟
– أجل .
– وتحدثها ؟ عجباً ! ما الذي تقوله لها ؟
– اوه . حديثاً عاماً . . أي حديث يخطر ببالي . .

– وكانت تصغي إليك ؟
– أجل . . تصغي فقط !
– ولكن ما الذي يدفعها لأن تصغي إليك ؟ أتعرفها ؟
– لا . قلت إنني اتصلت صدفة .
– لا تعرفها ؟ إسمع . أنت كذاب !
– أنا معك . . انها حكاية لا تصدق . . ولكنها حدثت . .
وصمت التليفون رويداً . واستأنفت غادة :
– تدعي أنك لا تعرفها . ولا تعرفك .
– لن تصدقيني . وأنا لا ألومك . انما هاك مثلاً : ألا ترين ؟ إننا الآن نتحدث وأحدنا لا يعرف صاحبه ؟
– والآن ماذا تريد ؟
– والله لا أدري . لاشيء !
– اذن ؟
– اذن ؟
– إغلق التليفون .
– بل إغلقيه أنت .
– إسمع !
– نعم . . .
– ان كان ما ترويه حقاً . أستطيع أن أنادي لك الفتاة التي تقصدها . . فقال متصنعاً التردد :
– والله لا أدري ماذا أقول . .
– ها ؟
– أخشى انك لم تفهمي قصدي جيداً . سؤال رجاء . أهي قريبتك ؟
– اختي . .

– اختك ؟

«يا أروع كذابة . .»

– أجل . أتريد أن تكلمها ؟

– انك تحرجيني يا آنسة . .

– ولم ؟ الا تقول أنك تتحدث اليها كل يوم ؟

سكت رافع . فعادت تقول :

– ها ؟ ماذا قلت ؟

– سؤال آخر يا آنسة . أيكما أكبر سناً ؟

– وماذا يعني ذلك ؟

– أجيبيني رجاء . .

– اطمئن . انها الأكبر . وان شئت ، فهي متزوجة . . ماذا قلت ؟

– انك تمزحين . . انت لا تصدقيني . .

– بل أتحدث جادة . هل أناديها ؟

وتردد رافع ، وفضل أن يراوغ :

– لا . أخشى أن يحرجها ذلك . .

– أبداً .

– لا . أرجوك .

– انتظر . . .

– لا . .

وأغلق التلفون . وتنهد . وهمس : «ذكية . . » وظل لبرهة يقدر لنفسه هذه الحقيقة .

ذكية . . وأنه ليعجب بها . . ويريدها ، ويفخر ، بل أنه ليخاف من هذه الشخصية التي تشعره بأن عليه أن يكون حذراً دائماً . . مرهفاً ، كمن يقابل عدواً شديد المراس !

واستذكر من جديد الليلة التي صدته فيها . وشعر أن ألمه لذلك غدا يتضاءل ،

ن لهفته لها أخذت من جديد تنمو . . وأكد لنفسه : «فلأحذر . . يجب ألا
ساهل . . لن أقربها حتى تحاول هي . . ذلك عهد . . »
وتمثل خطيئته مع الممرضة ، واستذكر ملمس الجسم المملوء ، وقذارة النهاية ،
عيني الممرضة وقد أصبحتا وقحتين بعد ذلك ، حتى لقد اضطر بعد يومين أن
ديها .
تعالي . .
تحت أمرك ! فغاظه
وغمزت له فغاظه ذلك .
اسمعي جيداً . أنت تعرفين أنني لست كالآخرين . .
فضحكت ، وهتفت :
أبداً وحقك . . لست مثلهم
واستصغر نفسه . . وقام .
ركب سيارته . وجعل يفكر بعادة من جديد : شيء ما غدا ينتقص من روعة
رته على الحديث في التليفون . . بات يحس أن زوجه تخير . وأنها أهل لكل
ل ، تستطيع أن تلعب بمليون رجل . . وأن تبقى هي كما هي . . له . . وردد :
باختيارها . . » لن يستطيع سوى أن يقر بأنها يجب أن تريده باختيارها ، وهو
يتعهد ، وبنوع من الاستشهاد ، ألا يقربها حتى تحاول هي ذلك . . .
أف . . لشد ما يبدو متعباً أن تكون زوجاً لامرأة ذكية !
وجدها جالسة في الغرفة . ووقعت عيناه على عينيها ، فقال لنفسه بمرح يشوبه
ت : «هذه الشيطانة كانت قبل برهة تحاول أن تلعب بي . . »
تخلى عن معطفه . وسأل ببساطة :
ألا تتعشى ؟
فقامت .
وقال لنفسه : «ها أنا اغدو المتلهف للحديث معها . . » وغاظه أنها ما أجابت .
يتناول طعامه صامتاً .

– رافع .
– نعم .
– أسمع يارافع .
وخفق قلبه .
– أجل .
– لقد مضى زمن وأنت . . (وسكتت)
لم تستطع أن تجد التعبير المناسب ، فتلجلجت ، وهالها ذلك . .
– أنت تدري . .
– ماذا ؟
قالت بانفعال :
– ما بالك ؟
– أنا ؟
وغضبت :
– والآن كف عن تصنع اللامبالاة . انني أفهمك جيداً :
فقال بهدوء :
– صدقيني انني لا أفهم ما تقصدين .
فقالت بحزم :
– لا علي إن تجاهلت أم لم تتجاهل . إنني أقول لك ببساطة ، وأسمع جيداً : انني لم أقصد فيما غضبت له أية اساءة . هذا كل ما أريد أن أقوله . وتركته .

أراد أن يقول شيئاً مناسباً ، فما استطاع . وتصرمت ليلة جديدة ، واستيقظ صباح جديد ، وهو مدرك أنها ستأخذ الان مبادرة التظاهر بالغضب ، وقرر ألا يولي ذلك انتباهاً . الا يعطيها المجال لتناور ، فظل طول الطريق وهو يوصلها الى المدرسة ، يثرثر ثرثرة عادية ، متجاهلاً انها حاولت اولاً ، الا ترد عليه .

أوصلها عند باب المدرسة . وظل واقفاً يرنو اليها بشغف حتى احتواها المدخل . . فأنطلق الى المستشفى .

* * *

(١١)

ترى ألم يراودها الشك في من أكون ؟

أمس وأنا اتحدث ، خيل لي أنني لم أعد أطيق ضبط النبرة التي أصطنعها ، وبدا لي ، انني انما اتحدث بصوتي الطبيعي .

حسناً . كيف يغيب عنها ذلك ؟

ثم . هذا التحول الجديد الذي طرأ على الحديث ، شخصية الأخت التي اخترعتها فجأة ؟

ولحين ، يخطر لي أن أتخلى عن كل شيء . وأن أعود اليها ، واستأنف حياتنا بشكل اعتيادي ، فلأمر ما ، يبدو أنني تعبت ، وأنني دون أن أطيق الاستمرار . فقد عادت

الوساوس من جديد تتسرب الى نفسي . وبقدر ماأحس حرماني الذي اخترته ، تنمو هذه الوساوس وتتسع ، وأنا أتطلع الى الهدوء الذي تتصرف به حيال لامبالاتي .

كان علي أن أنهي الأمر يوم حاولت استرضائي ، وأن أجد في اعتذارها الواثق ، مجالاً لان أصغي كل متاعبي . وعبثاً !

هذا العناء الذي لاحيلة لي فيه ، ينتابني كلما فكرت ، وأنا قربها ، بان احاول من جديد ، ثمة صوت يذكرني بالعهد الذي قطعته ، ألا أكون البادئ في أيما محاولة من هذا النوع . فلتطلب هي ، . إن . . إن كانت تحس أنها تد . . وتدعي ألا فرق . . فلتحاول هي إذن . . فلتسأل عن حقها . . وبنفس اللهفة . .

إنني متعب . يخيفني في عينيها هذا التحدي الانيق الواثق . وكانها فهمت شروطي ، وكأنها لاتملك مثلي الا أن تقول : لا . .

وأسأل نفسي : حسناً . الى متى ؟

«افرض أيها المكابر ، أنها مثلك لاتريد التنازل عن عنادها . وعدا هذا ، ألا يمكن أن تدرك أنك تكلفها الانتقاص من كرامتها اكثر مما يجب . . وأذكر ايضاً علية المرضة . .»

ويقودني هذا الى انني لا أستطيع التفكير . . أي تفكير هادئ ، في أن أعطي لغادة الحق الذي أعطيه لنفسي . إنني لا احتمل مجرد التفكير في ذلك . . وأتساءل ايضاً . . ماذا لو عرفت زوجتي بأنني خنتها ؟

خيانة !

– تبقى هذه الكلمة أبداً أكبر من أن تحتمل . .

أخون . . وأخان .

ومع هذا ، فانا أحس رهبة التفكير في أن غادة تستحق اللوم ، لأنها تبيح لنفسها التحدث في التليفون الى من لا تعرفه ، رغم انني أنا الذي أفتعل ذلك .

ويقلقني منطق : «إن كنت تخونها ، فلا حق لك ، بان تستبعد – ولو منطقياً–امكانية . . حق أن تخونك هي أيضاً .

يسقط المنطق .

وأزداد شوقاً اليها .

وقبل ليلتين ، أحلم ، وأفيق على حقيقة الراحة الجسمية المسترخية في فراشي ، وأهمس : «أنه لحلم دنيء . ! »

لقد رأيت لغادة وجه علية . هكذا . الى هذه الدرجة كان حلمي ساذجاً . وكان بيدي مشارط الجراحة . وكانت صالة العمليات البيضاء .

وزوجتي عارية أمامي . ويدي تشق بالمشرط اللحم المخدر . قطعة قطعة . واستنفدت بتوتر نفسي . وأفقت .

قمت من فراشي ، وأنا أحس جذاماً في ملابسي ، كان مصباح الغرفة الصغير يلقي ضياء خفيفاً على سرير غادة ، وهي راقدة ، بريئة . ونظيفة . تسللت بذل الى الحمام . واغتسلت ، فعلت ذلك بحذر وتلصص ، وأنا خائف من أن تكتشف زوجتي سري ! !

في اليوم الثاني سمعت صوتها . اذ أدرت قرص التليفون :

– هلو .

وقلت : «مساء الخير» وتمنيت أن ترد ، متقمصة شخصيتها الثانية . لم تفعل . ظلت ساكتة فأحنقني ذلك ، ورحت أخبط . وكنت قد صممت على ألا أشير الى حديثي مع (اختها) مقدراً أن ذلك سيثيرها حتماً ، وقلت بخبث :

«كنت طوال اليوم مشغول الفكر . ولاأدري . في عصرنا هذا ، يبدو أن الانسان لايكاد يستوعب مسؤوليته لنفسه . فكيف به وهو يحمل مسؤولية الآخرين ؟ . . زوجة مثلاً . . أم . . أخت . . طفل ؟ . بالأمس مثلاً . جاءني صديق يخطب الى أختي . تصوري ياغلواء ، ساعتها فقط انتبهت الى أن أختي قد بلغت سناً يخطبها فيه الخاطبون . واقول لك الحق ؟ لقد جزعت لذلك . . بل اذا تحريت الدقة ، غضبت من صديقي . . لا أدري . لقد بدا لي ساعتها المعنى العاري لما يطلبه مني ، فلم أكن أفهم من كلمة «أخطب أختك . . «سوى أن صديقي يقول لي بلهجة مؤدبة – أنني أرجو أن تسمح لي بأن . . بأن . . حسناً . . انها كلمة بذيئة – بأن أجامع أختك .

– أعذري تعبيري فلم أجد كلمة بديلة . .

لشد ما نحن معقدون !

أحسب أن وجهي اكتسى ساعتها ملامح مرعبة . حتى أن صاحبي لم يملك إلا أن يقول لي بحرج : «إسمع كن صريحاً . أتحسبني لا أليق بها ؟ »

أردت أن أصيح به : تليق لأي شيء؟

وكانت صورة «أبتسام» أختي ، تلوح لي ، هكذا : الطفلة الصغيرة ، تلعب ببراءة بين أيادينا . . ثم وهي بظفيرتين . . في الأول المتوسط . . وقلت ببلاهة :

– ولكنها صغيرة يا محمد . .

– صغيرة ؟ انها في الصف الثاني في الجامعة . .

وهتفت بحيرة وغضب :

– لا أدري ! !

فصاح بي :

– ما الذي لا تدريه ؟ . انا نحب بعضنا . .

وي . . يحبها ! !

رحت أتمثل المعنى الذي تحمله كلمة «نحب بعضنا» ، ولم أستطع أن أحتمل التفكير في أن «أبتسام» فعلت كل ذلك في غفلة مني .

كنت أتحدث في التليفون منفعلاً . وتمهلت رويداً ، ثم أستطردت :

«والآن . أسمعي ياغلواء . لست متزمتاً ، بالشكل الذي يوحي به حديثي ، بل أنني لمتحرر الأفكار حتماً ، ولكنه احساس صادق أسوقه اليك . فذاك بالضبط ما أحسسته . وهو لا يغير أبداً من أنني سأرضى بهذا الصديق زوجاً لأختي . . ولا أحسب أن ثمة مناصاً من ذلك ولكن أحساسي شيء لا يمكن التهرب منه . هل تتابعينني ؟»

سكت رويداً . ورحت أتلذذ في صمتي بالقصة التي أخترعتها . وشعرت بنشوة حديثي وقلت من جديد :

– «أعرف أنك لن تردي . انما يهمني شيئان فقط . الأول : ألا تصدمك صراحتي ، والثاني : أن يخفف الحديث اليك بعض ما في نفسي . . بعض ما أحسه من ضيق . . فأنا والله يا غلواء . لا أستطيع . . لا أحسبني أستطيع بحث أحاسيسي هذه ، حتى مع اكثر اصدقائي قرباً . . وتفهماً . . ولعل هذا يرضيك . بل انه ليرضيني . . هذا الشيء الذي مكن لنا أن نتحدث ، دون أن يعرف أحدنا صاحبه ، وبهذا ، فقد ألغي لدينا كل التزام . كل المؤثرات التي تكون عادة لدى أيما شخص نحدثه . . ونعرف عنه . . ويعرف عنا . . »

وأستطعت أن أسرق حديثي معها . . سرقته رويداً رويداً ، وبوعي وتلذذ الى الجنس ، وأنا مقدر نشوة أن أنطلق في حديث كهذا – حديث طالما تمنيت أن أجرها اليه كزوج ، فما استطعت . قلت لها وأنا أعتمد قصة أختي التي اصطنعتها .

– «لقد جعلني موضوع خطبة أختي أفكر : ألحق إنني لم أكتشف جديداً ، حينما تبينت النفاق في علاقات الناس ، والتزاماتهم ، وقيمهم : النفاق والتناقض ، والازدواج . انما استطعت بمنطق مجرد ، لا أحسبه يملك أي تأثير على واقع تصرفي ، أن أكون منصفاً ، وأدركت اننا معشر الرجال ، بشعون حينما لا ندرك المشكلة التي تعانيها المرأة الشرقية . وقد نكون معذورين وقد تكون المرأة ايضاً معذورة . . . لأننا في الحق ابناء ظروفنا ، التي نضطر لان ندور في فلكها . . »

ورحت اتفلسف . . الحرية . . إرادة التغيير . . والمرأة التي تخاف الجنس وتريده . . وعدم التكافؤ . . وكنت اجهد في أن أكون موضوعياً :

– «أية امرأة عندنا تستطيع أن تتحرر من قيود واقعها كانثى في هذا المجتمع العنيد ؟ كنت أود لو استطعت أن آخذ منك مثلاً . ولكن الحرج يقف في حنجرتي . حسناً لنأخذ ابتسام : البنت لابد قد ادركت رغباتها في منزلي منذ عشرة أعوام . . وربما أكثر . . . ولقد كنت كرجل . . كرجل عندي مستوى ما من الناحية الثقافية أبعد ما أكون حتى عن الانتباه الى حقيقة أن لي أختاً انثى . . لابد أنها تحس . . وتريد . . وانني لأدرك هذه الساعة ، عنف ما كابدته ، كمثل . . كنموذج للملايين من

فتياتنا . وأدرك بخجل وتقزز ورهبة . أن أختي – ولأكن قاسياً – لابد مارست خلال كل هذه السنوات شتى السبل لأن تطمن في نفسها حاجات الانثى . . . أف . . أنه لموضوع شائك . . ألا ترين ؟»

كنت في جملتي الأخيرة ، أمهد لانتقال أكثر جرأة ، لولا أن سماعة التلفون ثقلت لي من منزلنا صوت جرس الباب . .

– ها ؟ انني أسمع الجرس . لا بأس . دعينا نتته . . .

وأقفلت هي الخط .

وجلست أفكر : اتراني أتجاوز حدود الحديث . وخطر لي افتراض راعني ، لماذا لا أحاول أن أختبر بهذا الشكل ، مدى الاستجابة عند غادة : أن أسلك في الحديث أوقح ما أستطيع . . ترى الى أي حد ستستطيع الاستمرار ؟

آنذاك ، ذكرت شخصيتها الثانية ، وتساءلت من جديد ، ما الذي دفعها الى ذلك ؟ ثم ما بالها أهملت الموضوع . لقد فكرت في حينها انها انما اخترعت شخصية الاخت لتربكني ، وتعطي لنفسها مجال الحديث . . مجال التلوين . . ما بالها تكف اذن ؟

لا مناص من الانتظار !

* * *

(١٢)

الجمعة ٧ كانون الأول

(عيادة الدكتور رافع . . . يدير الدكتور قرص التليفون باهتمام فاذا أنتهى اشعل سيكارة . وانتظر . .

الساعة تقارب السابعة . المساء عند النوافذ . وفي الغرفة روائح عقاقير)

رافع : مساء الخير (يفتح عينيه باتتباه) من ؟ (يبتسم ابتسامة عريضة)أنت ؟ اجل . عرفتك . طبعاً (يصغي) والآن ؟ ألم أقل لك انني كنت صادقاً ؟ (تتسع ابتسامته) إسمعي . اسمعي يا آنسة . لاحق لك . اذا خربت العدل فقد كان عليك أن

تسأليها (يطفئ السيكارة بذهول) . أجل تسأليها كما وعدت . . إسمعي . . اصغي الي رجاء . . لا أريد أن تتصوري من الأمر أكثر مما هو . أنا ؟ (يضحك) أبداً . . حسناً . . نادها الآن . لا ليس في ذلك أيما إحراج . . أنا . . انا واثق انها أكثر منك فهماً وإن كانت أقل شجاعة . . طبعاً لك الحق (يصغي) ماذا أقول . . ربما كنت في المرة السابقة واهماً . وحين اتصلت بها (يسكت) أجل . . ولم لا ؟ طوال الاسبوع (يصغي) لم اخبرها . واحسب أنك ايضاً لم تفعلي . . ها ؟ ولكن لماذا ؟ انه تلصص . . لا . . ليس منطقاً أن تخبرك . . (يقف) هيبا . . (يهز رأسه) هيبا . . اسمعيني . . هيبا تعتبر الأمر شيئاً يخصها وحدها . . فليكن . ماذا يبدل من الأمر ؟ متزوجة أو غير متزوجة (يصغي بنشوة . . يحاول احياناً أن يتكلم . . . .)

(. . . . منزل الدكتور رافع . غادة لدى زاوية التلفون . السماعة بيدها . . على الحائط صورة مؤطرة لرينوار . . غادة تتحدث بجد ويعبر وجهها عن انفعال) . . اوه طبعاً . . (تبتسم) انني عادة آتي الى هنا كل يوم جمعة . . أجل كل جمعة . . ربما (بعصبية) ماذا ؟ ولكن ماذا تريده منها ؟ (تصغي) إذن فما بالك تخابرها كل يوم ؟ (تقطب حاجبيها مع ابتسامة) أيعجبك أن تتحدث لكل من يصغي اليك ؟ (تضحك . . يسمع صوت رافع أيضاً)

رافع : ما الذي يضحكك ؟

غادة : انك مغرور .

رافع : أعرف ذلك .

غادة : تعرف ماذا ؟

رافع : انني كما قلت : مغرور .

غادة : تسخر ؟

رافع : ابداً . انني أدرك مبلغ غروري . ذاك يعزيني انني اثق بنفسي .

غادة : ماذا تقصد ؟

رافع : (باسماً) لا شيء . . .

غادة : (ساكتة تعبث بشعرها)

رافع : ها ؟ ما بالك سكت ؟

غادة : وماذا بوسعي أن أقول ؟ أحياناً يكون السكوت أبلغ !

رافع : احلف انك أخت أختك !

غادة : ثم ماذا (بسخرية)

رافع : (بمكايدة) لا شيء . .

(صمت قصير . .)

رافع : (بمكر) إسمعي . . ان كنت قد ضجرت من حديثي . فلست مجبرة على الاصغاء الي . .

غادة : (تبتسم . وبلهجة ساخرة) كيف ؟ أتحسب أن أحداً يمكن أن يضجر من حديثك ؟

رافع : (بجد) والآن . لقد طلبت منك أن تنادي اختك . وأعتقد انني بهذا أعفيك من مشقة الاصغاء الي . .

غادة : ولكن يا رجل . . كيف تجيز لنفسك أن تتصور . أن أختي مستعدة أبداً لتخف الى الاصغاء الى ثرثرتك . . من تحسب نفسك . ؟

(صمت قصير)

رافع : أرأيت ؟ لشد ما أنت محقة . . أحياناً يكون الصمت أبلغ جواب . .

غادة : (بجدة) تسمح تغلق التليفون ؟

رافع : ولماذا لا تفعلين أنت ؟ أغلقيه أنت !

(تضع غادة السماعة على مسندها . وبقرع جرس الباب فتتجه اليه بهدوء)

(الاثنين ٦ كانون الاول)

من جديد . تحس أن الصوت أليف لديها .

كلما أخذها العجب «بالمجهول» زاد عندها الشك . . والخوف من أن تقع في قلب .

وتفكر : حتى اليوم لم تستطع أن تكون عنه فكرة واضحة : شخصيته ؟ . سنه ؟ عمله ؟

وكانت تضيق بوساوسها ، فتروح تدافع عن نفسها فكرة انه قد يكون يعرفها . ثم لا تلبث أن تتساءل : «حسناً . . لماذا إذن أصغي اليه ؟» وينتصب في خاطرها سؤال مقابل .

– ولم لا ؟

– ليس معقولاً . . ليس معقولاً !

– ما الضير ؟

– ماذا لو أن رافع مثلاً اطلع على الأمر بتفاصيله ؟

وسرقها تفكيرها الى زوجها . وأكدت لنفسها بهدوء أنه عائد اليها . . أنها لتفهم لهفته في نظراته . . وفي تصنعه اللا اهتمام . . لقد تخلى عنه ذاك الغضب الذي أقلقها طوال الاسبوع ، ولم يتخلف سوى شيء من الكرامة يحاول أن يداريها . .

وابتسمت . .

بالامس أخذها الى قضاء أمسية في دار صديق : لشد ما كان متألقاً ، حتى لقد بدا لها دونما تحيز أروع الحاضرين . وسألت نفسها ، وهي تتطلع الى عدد من الشباب الموجودين آنذاك ، تراها تفضل فيهم شيئاً على زوجها ؟ تراها تتمنى من بينهم سواه ؟

وفي ساعة متأخرة عادا الى البيت ، وتوجست بنشوة أنه لابد مقلع الليلة عن عناده . .

كان ثملاً . . وكان وجهه يعكس صفحاً . . وفي فمه بقايا مرح .

واشتاقته .

فتح باب الدار ، وتبعته . وفي منتصف الهول وقف ازاءها ، وتطلع اليها بذهول ، وللحظة ، أحست أن الامور مستقيم ، لولا أنه تردد هنيهة ، ثم انفلت عنها الى غرفة النوم ، فتبعته لم تحس ذلة في لهفتها إليه ، وقال لها وهو يستبدل ملابسه :

– لقد كانت سهرة ناجحة . .

وفضحته لهجته . وفضحها توقعها . وظلت في سريرها ساهدة تتوقعه ، حتى تقادم الليل : «كفى لقد تعبت . . يجب أن أنام !» . وحاولت . فلم تستطع . كانت تدرك أنه مثلها لم ينم بعد . وكان الليل يتكاثف . . ويهدأ . . ويزداد عمقاً . . – أوف . .

وأولته ظهرها . أما هو فكان يردد في نفسه «أبداً . . فلتبدأ هي . .»

ولم يدر متى أغفى . وكان صباح آخر . وقال رافع لنفسه ، وهو يتناول فطوره متعباً «إن الافكار التي تدور في رأسي . . أفكار غريبة شاذة . . وإلا ، أفيعقل أن يتصرف رجل مع زوجته بهذا الشكل ؟» وقرر : «أنني أسلك بسخف . . إنني أبحث عن المشاكل . . والغريب إنني أفعل ذلك بتلذذ . .»

وظل طوال اليوم يفكر بنفسه وبزوجته . . وظل يتساءل : ترى ماذا أريد ؟ كان يحس أنه يفتقد شيئاً من تأكيد نفسه ، من امتحان الثقة . . بمن ؟ . . بنفسه ؟ . . بغادة ؟ . . بسعادته ؟ . . بحياته ؟ بماذا ؟ وخيل اليه أنه كصاحب قصة «أمير في الخيال» ، حينما طلب من الجارية أن تعض له أذنه ، لمجرد أن يتأكد من أنه يعيش سعادته حقيقة ! !

والا فبم يفسر إصراره على المغامرة مثلاً ؟ هذا الاصرار الذي يبدو فيه من المرض اكثر مما فيه من العافية ؟ . . ثم . . أين هو من الدنيا في كل خياله هذا . . من العالم الجبار الزاخر بالعجائب ! . . بالمآسي . . بالصراع . . بالارادة . . باحداثه المدومة . . أين موقع احاسيسه وقد غدا ينغلق على شعور أناني ، في دائرة يحسب أنه المركز منها .

وحمد لنفسه أنه طبيب . . وأنه حينما يودع البيت ، ويرتدي ملابس العمل في المستشفى أو العيادة ، فهو مستطيع بشكل ما . أن ينسى هذه الذاتية المفرطة ليحس العلاقة التي تحكمه بالآخرين – آخرين هم الناس . . لا يعرفهم . . ولا يرتبط بهم بسوى أنه يدرك مقدار ما يملك من وسيلة ، لأن يراهم عن طريقة أوفر صحة . . اكثر سعادة .

وقال لنفسه : «ومع هذا . . فلست طبيباً ممتازاً . . أنا واحد من مئات الاطباء المغمورين الذين يعملون بآلية . . بنوع من العبودية للمهنة . . للرتابة . .» . وتذكر أحلامه وهو طالب في كلية الطب : «أكون طبيباً بارزاً ، كأن أكتشف دواء . . أجل . لم لا ؟ اكتشف دواء . . أخترع طريقة . . عملية ! . .»

ولم يصبح كما أراد . وها هو لا يأبه . . . إنما يقلب شفتيه ببلاهة ويعبر ردهة المستشفى .

كان يسعده ، وما يزال ، أن يدرك أن مريضاً شفاه العلاج الذي وصفه له . . مريضاً مهدماً ، يراه بعد حين وقد استعاد صحته ، فيقول لنفسه «الولاي . . فلربما مات» أنه يحس بالرضا . . وبشيء من الخمول . . فهو العمل . . وقد تعوده . وبعد ؟

أراد أن يتزوج . . فجأة أحس هذه الرغبة ، في غمار من ضجر أيضاً ، وفقدان الهدف . . ويومها أقنع نفسه ، بأن الزواج كفيل بانقاذه . . وكانت غادة بالنسبة له منقذاً ، بعد أن رأى فيها أكثر مما كان يتوقع . وهذا ، فسرعان ما راح يشك في حقيقة أنه وقع على الفتاة التي يريد ، وراح يمتحن واقعه بالف حجة . . وبقسوة . . وقلق كمن يتقدم للفحص الطبي . . ويخاف أن يفشل فيه ، رغم ثقته بأنه سليم معافى . .

عند الظهر ، دعي للغداء فاعتذر . وخف الى البيت ، وتناول غداءه مع زوجته ، وبقي وإياها . وحاول أن يتصرف بعفوية وطلاقة . .

جلسا في حديقة الدار . كانت الشمس تملأ الأرض المخضرة . . وللحظة تمنى لو كان لها طفل . . طفل كان يمكن أن يكون الان في سنته الأولى . .

وقاده ذلك للتفكير من جديد بعلاقتهما . . بالخصام الصعب الذي فرضاه . . فتألم . . وراح يطالع الصحيفة اليومية ببرم . . وتابع بضيق انباء العالم المضطرب . . وخيل اليه أن السعادة سخف ، فهي أبداً مهددة بالخطر ، في لحظة ، تشب فيها حرب تمحق الكائنات ! وابتسم بمرارة . . وهتف بصوت مسموع :

– ثم ماذا ؟

- ها ؟
- الحرب . . الجريدة تدعي أن حرباً عالمية محتملة الوقوع . .
- هراء .
- الجريدة تقول هذا .
- هراء . . فليقل من يقول . لن تقوم حرب .

وفكرت في نفسها : «لماذا أقول ذلك ؟» . ورأته يقوم .

كانت الساعة تقارب الثالثة والنصف ، وهي تدري أنه ذاهب للعيادة ، ومع هذا تمنت لو أنه بقي معها . كرهت أن تحس ، أنه سيخلفها وينغمر في عمل ، فتبقى وحيدة . قالت له :

- الى أين ؟

وتطلع اليها بابتسامة مقتضبة كأنه يقول : «ألا تعلمين ؟» .

ولاحقته :

- إسمع يا رافع . . إنني ضجرة لم أعد أحتمل البقاء وحدي . . فقال وهو يتجه الى الباب .
- ولكن من يجبرك على البقاء وحدك ؟

وقبل أن ينتقل سيارته قال لها :

- أتريدين أن أوصلك الى منزل أمينة ؟
- لا . .

قالتها بغضب . . لماذا ؟ لم تدر . . .

* * *

(١٣)

إتصل بها المجهول يوم الاربعاء . سألها مباشرة :

– أتعجبك الأغاني القديمة ؟

ولم تستطع أن تدرك ماذا يرمي اليه ؟

– أجل الاغاني القديمة الاصيلة . خذي مثلاً هذه التي تتحدث عن «حسن» وقد ربته صغيراً . . اللحن المتزن . . المقتصد في حزنه وطربه . . ثم نبرة العتاب المستسلمة ، والتي تتكرر بقلق هادئ «ليش انكرتني . . ليش انكرتني»

وكادت غادة تضحك لنزوة حديثه هذه :

– أتريدين أن أغني لك ؟ (وضحك) هه ! أتدرين ؟ لابد أن يكون لك صوت جميل ، رغم أنني لم أسمع منك سوى هذه الـ (هلو) . . ان صوتاً جميلاً يمكن أن يغسل الكثير من المتاعب . . من القلق . . أحياناً . . عندما يضيق صدري ، اتمنى لو زعقت مغنياً . . رغم أن صوتي بشع . .

كان يتحدث وهو يحاول أن يكشف أفكاره ليستقر . واستطرد :

– هذه الأشياء الجميلة ستبقى أبداً دليل العافية التي مازال تعيشها البشرية . . صوت جميل . . لحن . . قطعة شعر . . لون . . رائحة . . شذى . . ويستعيد الانسان إذاك ثقته بنفسه . ويسترد القيم التي افتقدها . والآن ؟ (وتردد قليلاً) الآن . . ما لنا ولهذا ؟ دعيني أكمل لك قصة اختي : تأملي . . أمس دعوتها الي ، كانت الشيطانة تدرك ما أنا يسبيلي لأن أحدثها به . . وتفرست بها ملياً . . انثى كاملة حقاً . . وأقول الحق ؟ ساعتها ، وأنا أتاملها ، عاودني الغضب . . شعرت من جديد أنها استغفلتني وقلت لها دون تمهيد :

– هل تعرفين فلان ؟

وراعني أنها ابتسمت ببساطة ، وكدت أنصرف بحمق ، لو لا أنني تمالكت ، وقلت :

– إسمعي يا ابتسام . . دون أية مقدمات . . لقد خطبك فلان فماذا تقولين ؟ آنذاك ، أغضت الملعونة بحياء رهيب ، واحمر خداها ، فصرخت بعصبية :

– أتريدينه ؟

وظلت ساكتة . وأوحى الي سكوتها يا غلواء ، بانها أشد دهاء مني . وهنا لحقت بنا أمي ، ولشد ما كانت دهشتي حين علمت أنها هي أيضاً تدري . . وضحكت . . مغلوباً على أمري ، وقلت كمن يدافع عن نفسه :

– ولكنك بعد لم تكملي دراستك ؟

لم يصغ الي أحد . . هه ! (وسكت رويداً ، وقال) . . ما علينا . . سيعرض فيلم جديد في (ريكس) . . حبذا لو ذهبت لمشاهدته . ومن يدري ، ربما التقينا هناك ،

فلا يعرف أحدنا صاحبه . . وهذا أطرف ما في الأمر . . إسمعي . . سأحاول أن أذهب الى الفيلم يوم الجمعة ، الدور الثاني . . فحاولي أنت . . دعينا نشاهده سوية . . سيكون ذلك رائعاً . . وسأتفرس في كل الفتيات . . وسأحاول أن أقدر . . . أين تكونين ؟ ومن يدري ؟ ربما صدقت فراستي . . أتعديني يا غلواء ؟ . . ها ؟ والآن . . إن كنت موافقة ، فاغلقي التليفون (وانتظر رويداً) كما تشائين . . أعرف انني قد لا أفهم ظروفك . . ومع هذا ، حاولي رجاءً . . سأذهب على أية حال يوم الجمعة . . ها ؟ لا تنسي . . اذا استطعت . . . فالى اللقاء . .

وأغلق التليفون .

مر الخميس ، ولم يتصل بها . وكاد يغفل الاتصال يوم الجمعة أيضاً ، لولا أنه تذكر أنها ربما أجابته اليوم بشخصيتها الثانية . فشرب كأساً في النادي ، وتخلص الى التليفون :

– مساء الخير . .

وظلت السماعة صامتة . وأحس خيبة . وفكر بتعجل . «ماذا أقول ؟»

– اسمعي يا غلواء . ألك اخت ؟

وانتظر كمن يتوقع جواباً ، ثم استطرد بحماس :

– أرجوك أجيبيني . أو كما تشائين . . لا تردي . . إنما علي أن أخبرك بجلية الأمر : فقبل أسبوعين ، إتصلت بك ، في مثل هذا اليوم ، إتصلت بك ، فأجابتني فتاة تزعم أنها اختك (وابتسم لنفسه . . وانتظر) أحلف على ذلك . . صدقيني . . لقد قلت مساء الخير كعادتي ، فرد على تحيتي صوت فتاة . وقد خيل لي أول الأمر أنها أنت . . ولكنني كنت واهماً . .

وضحكت غادة . . تصنعت ضحكة مكتومة ، كمن لا تستطيع ضبط نفسها ، وقررت أن تتخذ شخصية الأخت ، وأن توهمه أنه وقع في الفخ وسمعت صوته . .

– من ؟ . . أنت ؟

وأطلقت ضحكة ساخرة . فأدرك لعبتها ، وهتف متصنعاً الغضب والحرج :

– ولكن هذا لا يليق !

فقالت متهكمة :

– أفكان من اللائق أن تشكوني لأختي ؟

– أشكوك ؟ انجدين غرابة فيما فعلته ؟

– أبداً . . أية غرابة . (وهتفت بعصبية) إسمع ايها المتظرف ، ان كنت جاداً في رغبتك . في اطلاع أختي ، فما الذي منعك عن ذلك طوال هذه المدة ؟

– ماذا تقصدين ؟

– أقصد أنك محتال فاشل . . وإنني اشك في دوافعك . . إنني أنذرك إن لم تكف . .

– حسناً . . إن لم أكف . .

– يا رجل . . يا بشر . . الا يمكن أن تفطن لقذارة ما تلعبه ؟ إن أختي امرأة متزوجة . . الا يمكن أن تتصور مبلغ ما يصيبها من حرج إذا عرف زوجها بالأمر ؟

وجف قلب رافع ، وهمس وهو يتمالك أعصابه :

– إن لم تخبريه أنت . . فلن يدري . . ثم عدا هذا ، ما الضير فيما نفعله ؟ . .

– عجيب . لا يمكن أن تكون بليداً الى هذا الحد . . إسمع يا هذا . . ألست متزوجاً ؟ أما من امرأة . . فتاة ، في عائلتك تحس بمسؤوليتك أمام سمعتها ؟

فرد محرجاً :

– على مهلك . أتحسبين نفسك وصية على أختك ؟ ماذا ؟ ماذا تتصورين ؟ ترى ما الذي تتخيلينه ؟

– والله لا أدري . . ماذا تريدني أن اتصور ؟ أتحسبني من الغفلة بحيث . . اعتبر حديثكما مناقشة علمية لقضايا الكون ؟ إسمع . إن ما أعتقده هو أنك تعرفنا . . واحد من المتطفلين التافهين . . أو . . من يدري . . لعلك عدو تريد الانتقام . . تريد الايقاع باختي أو بزوجها ؟ وإلا فماذا تريد ؟ قل لي . . اقنعني . . ماذا تهدف ؟ .

«عظيم . . . عظيم يا غادة ؟»

كان فرحاً بثورتها التي بددت مخاوفه . وكان مشدوهاً . . وود لو تخلى اللحظة عن

لعبته ، وقال لها . . الآن . . وعلى التو : «الا ترين يا غادة . . لقد شربت المقلب . . فلم تتعرفي علي . . فانا . . أنا . . .»

– أنا . . أنا آسف . .

فصاحت بسخرية :

– حقاً ؟ . . كم أنت متساهل ! (تقلد لهجته) أنا آسف . .

وضحك لتقليدها وهمس :

– ولكن ماذا تريدينني أن أقول ؟

– إسمع .

– أمرك .

– إن كنت شجاعاً حقاً . . بل . . إن كنت سليم النية . . فقل من أنت . . وإلا ، فانت جبان . .

– جبان ؟ (وضحك) حسناً . إنما ما الذي يحديك أن تعرفيني ؟ هل يبدل ذلك من الوضع شيئاً ؟

– كثيراً !

– لا بأس . إفرضي أنني اخترعت اسماً وقلته لك ، فماذا سيغير ذلك ؟ ثقي يا آنسة انك لا تعرفينني . .

– إذن فانت تعرفنا . .

– اوه حبذا . . أتدرين كم يكلفني العهد الذي قطعته لنفسي ألا اعرفكم ؟ أو الأصح ألا اعرف أختك ؟ ثقي أنني أعاني مثلك من الفضول . ولكنني أغالب نفسي . . لأنني أجد في ذلك شيئاً من المتعة . .

– هراء . تريدني أن اصدقك ؟

– ابداً والله ، لو صدقتني ، لكان ذاك مدعاة لأن أشك في سذاجتك . . ولكنني مع هذا اعتقد أن اختك تصدقني . .

– (بسخرية) أتسمح أن تبين لي لماذا ؟

– ماذا أقول ؟ يلوح لي أنها تستطيع أن تفهمني . . أما أنت . .
– عبثاً تحاول . . لن تنطلي علي وسائلك . .
– عال . . يبقى أن تخبريني ما الذي تريدينه اذن ؟
– لن أسمح لك أن تعبث بأختي . .
– ولكنكما . . أتصدقين ؟ ولكنكما أنتما اللتان تعبثان . . ألا ترين ؟ ما الذي يجعلني مضطراً لسماع روائع الكلم الذي توجهينه : «جبان . . كذاب . . محتال . . سيء النية . . هراء . .» وماذا بعد ؟ أجيبيني . . أتحسبينني مستفيداً من الحديث إليكما . . ماذا ؟ علماً ؟ جاهاً ؟ . . ما الذي يدور في ذهنك ؟ لقد قلت قبل قليل أن أختك متزوجة ، وأن زوجها . . وو . . ماذا ؟ هل تتصورين أنني أريد أن أسلب اختك من زوجها ؟ . يا للغرابة ! وكيف ؟ بأن أحدثها في التليفون . . إسمعي . . إسمعي . . لا تقاطعيني . . إنني أدرك أن أختك تملك من رجاحة العقل ما يقيها أوهامك المراهقة . أجل . . إسمعي . . لكم قلت لنفسي ! حسناً . . إنني اترك لها مجال الاختيار . . ليس ثمة ما يجبرها على الاصغاء إلي . . كما أنني الآن لا أكلفك هذا الواجب . . إنتظري . . بامكان أي منكما ، ترى أنها زاهدة في سماع هذري ، أو تجد بأساً في الاصغاء إلي ، بامكانها ببساطة ألا تصغي . . بيدها السماعة ، تلقيها على مسندها ، وينتهي الأمر . . لا شكوك . . ولا اتهامات . . ولا كلمات جارحة ، وإذا شئت وضوحاً أكثر ، فبأمكان أي منكما أنت أو أختك ، أن تقول بوجهي بصراحة : أيها الرجل . . ولا بأس أيضاً ايها السخيف . . إفهم جيداً ، أننا لا نريد الاصغاء إليك . . وإننا لنتذرك بأن تكف عن مضايقتنا . . هه ! . . ساعتها إن لم أرتدع . . فسأكون سخيفاً حقاً ، وثافهاً ، ومحتالاً . . أما أن تصغيا إلي ولا تجدا في ذلك ضيراً ، ثم ، تأتين أنت لتناقشيني الحساب بهذا الاسلوب الغريب ، فذاك لعمري ، أغرب منطق نسائي سمعته ، ثم عدا هذا . . أنت بالذات . . . ما شأنك بي ؟ ما الذي يعطيك الحق لمناقشتي الحساب ؟ الأني أتحدث إلى أختك ؟ ولكنها راضية . . وإن كان ثمة ما تملكين الحق في فعله . . فهو أن تناقشيها هي الحساب . . أقنعيها ألا

تصغي إلي . . لا تقاطعيني إنني أفهم جيداً دوافع إلحاحك . . . وإنني لاأدريها . . ولن أسمح لنفسي بعد الساعة أن أدخل في حديث معك . . . وسد التليفون بوجهها بعصبية . .

ظل برهة ممسكاً بمقبض السماعة . . ثم أشعل سيكارة وخرج .

كانت بقايا الكأس تعتمل في أعماقه . . ونشوة غلابة تسير في جسمه . .

نظر الى ساعته ، وهو يستقل السيارة ، فوجدها تتجاوز الثامنة والنصف . . كان الجو غائماً . . وأنسام رطبة تتحرك منذرة بالمطر . . ومصابيح الشوارع تحمل ومضات غامزة . . والناس حوله حقيقيون . . وحده فقط . . إنه يحس أنه وحده فقط ، غير متثبت من مكانه . .

وصل البيت . وفكر وهو يوقف السيارة : إنها هناك . . هذه الانسانة التي تملأ له أوقاته . . ما الذي تراها تفكر به الان ؟ وتمنى . . لو كان ثمة وسيلة يمكن بواسطتها الكشف عن أفكار الآخرين . .

واحس مقدماً بما سيكون في اجتماعهما . . الصمت المعكر . . التوقع . . الرغبة . . الحذر . . وللحظة قرر من جديد : ان الحياة بهذا التعقيد لاتطاق . . نحن لسنا أسوياء !

إستقبلته كعادتها ، لا هو احتفاء ، ولا برود . وتأملها . هذه الملامح أين رآها في اوائل حياته ؟ . . بدا له أن فيها ملامح وجه من وجوه طفولته . . .

وقالت له :

– ما بالك ؟

– لاشيء . . ضجر . . ألن يزورنا أحد هذا اليوم ؟

– من تتوقع ؟

– أياً كان . . إنني ضجر . .

– لو كنت مكاني . . لضجرت أكثر . . يخيل إلي إنني سأكره البيت ، لفرط مكوثي فيه .

فقال بشيء من عصبية ، وهو يستذكر حديثها في نفس الموضوع قبل يومين :

– ولكن من تلومين في هذا ؟ لماذا تمكثين في البيت ، لماذا لا تخرجين ؟

– أين ؟

قالتها بلهجة مغلوبة ، وتفرس بها . خيل اليه أن ملامحها أشد ذبولاً . . وأن شحوباً يصبغ وجنتيها . فقال بطيب .

– هل أنت واثقة من أن صحتك على ما يرام ؟ أتشكين شيئاً ؟

فقالت بدلال لم يخف عليه :

– الضجر . أنا أيضاً ضجرة . .

آلمه قولها . وأحس أنها تحمله مسؤولية أن تكون حياتها معه مملة . . وأغضبه ذلك . . وأخافه . . وأتبه الى أن هذا التشكي قد يعكس أمراً ما . . شيئاً ، ما كان لها أن تشكو منه أو تقوله ، وقال ساهماً :

– هيا . . فلنذهب ونتعشى في النادي . .

فقالت برمة :

– ولكنني أعددت العشاء . .

– اذن نتعشى ونذهب . . ها ؟

فقالت بتردد :

– ولكن ما الذي سنفعله هناك ؟

– حسناً اذن . فلتزر أهلك !

– اوه . . !

فقال صابراً :

– نذهب الى السينما . ؟

ووميض في ذهنه خاطر . إستذكر دعوته لها الى الفيلم في التليفون وتساءل وهو يحدق فيها ، إن كان تصرفها مناورة . . هذا التكلف المفاجئ للضجر . . وكرر :

– أجل . فلنذهب الى السينما . .

– ليس ثمة فيلم جيد .

فقال مناوراً :

– وما أدراك ؟ اليوم هو الجمعة ، ولا بد أن دور العرض أبدلت أفلامها . . وحدق فيها . عبثاً . رآها تدخل غرفة الطعام ، فتبعها ، وراحا يتناولان عشاءهما . وقال لها :

– لعلك تحسبيني مسؤولاً عن كونك ضجرة .

فقالت باسمة :

– طبعاً . .

– ولكنني أيضاً ضجر مثلك . أفألقي اللوم عليك ؟

فضحكت وقالت .

– ولكنك الرجل . .

فصاح بها :

– أنت تقولين هذا ؟ وأين المساواة إذن ؟ ألسنا أنداداً لبعضنا ؟

– أنت لا تؤمن بهذا . إسمع يا رافع . لقد تذكرت . هناك فيلم جيد في «ريكس» باغته قولها .

– ما أدراك ؟

– لا أدري . أحسبهم في المدرسة قالوا ذلك . .

الكذب ! وأضافت . .

– ربما قرأت ذلك في إعلان الجريدة :

الكذب ! ! لم يشتر اليوم جريدة . ووجد نفسه فجأة نهباً لاضطراب واضح . ولم يستطع السيطرة على مشاعره . فهتف :

– أنت واهمة . لم تبدل «ريكس» فيلمها القديم !

– بل أبدلته . .

وزاد غضبه . إذن فالمناورة كانت هنا : كل هذا التظاهر بالضجر . كل هذه الأكاذيب ، لكي تقوده لتلبية دعوة (المجهول) !

وشعر بأنه رجل بخان . . وهتف :

– لم تبدله . .

– ولكن ما بالك تعاند ؟ إتصل بادارة السينما . . ياللعجب ! قبل قليل كنت متحمساً لأن نذهب . . أقول لك انني متأكدة . .

فقال مقهوراً :

– وما أدراك أنه فيلم جيد ؟

– أتصل . . تأكد . .

فتماسك . . وقال دون أن يدري :

– أتراهنين . .

– أراهن . .

ووجد نفسه يرفع سماعة التليفون . كان يتحرك بآلية . وكان أنين حاد يرتفع في أعماقه . وجاءه صوت في التلفون :

– هلو . هنا سينما «ريكس» . .

– مساء الخير . .

ولم تعد غادة تصغي . .

كان صوت رافع يرن في أذنها : «مساء الخير ! »

وبدا كأن آفاقاً تتفتح أمامها : هذه النبرة . . أجل النبرة . .

«مساء الخير . . »

أيمكن أن يكون هذا ؟

كيف لم يتأت لها أن تشك . . أن يتبادر الى ذهنها هذا . . وهي منذ شهر تستعرض بدأب بين معارفها ، من يمكن أن ترشحه لشخصية هذا المجهول الذي يحدثها . .

والآن ؟

سمعت رافع يقول في التليفون :

– اذن فأحجز لنا مقصورة رجاء . الدكتور رافع . أجل رافع . شكراً .

والتفتت فواجهها ، وأستوعبت ملامحه بصراحة :

– لقد ربحت . هيا . سيبدأ الفيلم بعد نصف ساعة .

قالت لخواطرها : «أنا واهمة . فالصوت . » وأبتسمت بذهول . وأنفلتت ترتدي ملابس الخروج . وفي المرآة ، كانت تراه واقفاً عند باب الغرفة . كان التفكير الجديد ، يشل كل قدرة لها على التأمل المتاني : «لو فرضنا أنه هو . »

أما هو . فكان يرى جانباً من وجهها ، وكتفها . وكان يردد في نفسه : «لقد كذبت من أجل ألا تخلف موعدها . كذبت . »

* * *

(١٤)

هو – (لنفسه وهما يركبان السيارة) هي ذي الامور تتطور . ، أرأيت الى الطريقة المخادعة ؟ . . ترى إذا تطور الأمر أكثر . . افرض أن شهراً آخر على هذا المنوال . . وأرتبطت بمحدثها المجهول أكثر . . أجل . . هكذا تتصرف الامور . . تبدأ ، بأن تلفت انتباه من تريد . . وليكن بأكثر الاساليب خروجاً على المألوف . . وبعد ذلك ، أكبر قدر من الحذق في أن تبقيها أبداً مشدودة ، فلا تترك لها المجال للخروج من دائرة تأثيرك . . وفجأة . . تجد نفسك المسيطر . . وعند ذاك ، فلن يكون في العالم أكثر قابلية على المراوغة والخداع من امرأة تصطاد (يضغط على البنزين)

هي – (تخاطبه) سنق على مهلك . مايزال ثمة متسع . (لنفسها) لو صح أنه هو ، فأنا أكبر مغفلة . ولكن أنى لي أن أعرف ؟ كيف لك أن تتأكدي ؟ . ولكن . لماذا لم يخطر لي هذا سابقاً ؟ . كيف غاب عني هذا الاحتمال ؟ . سيما وأنه قد حكى لك عن مقالب كثيرة دبرها لأصدقائه . ولكن . بلا لكن . يجب أن أتأكد قبل فوات الاوان . .

هو – (لنفسه . وهو ما يزال ينظر الى أمام) وأنت الملوم . فكر بانصاف يا بليد !

هي – (تتطلع اليه من جانب) . فلن أغفر له . بالله . أي معنى يتضمنه هذا لو صح أنه هو . حسب لو أتأكد . إسمعي ، أنت الآن مرتبكة . حاولي أن تفكري بهدوء . لقد مضى ، منذ أن بدأ المجهول يتصل . كم ؟ لست تدرين ؟ شهران ؟ . أكثر كيف ؟ يبدو أنه قد بدأ يتحدث منذ مدة طويلة . .

هو – (يتفادى سيارة أمامه) ابن الكلب (لنفسه) أنا منفعل . لو كنت عاقلاً فأقلعت منذ البداية عن هذا المزاح السخيف . إنها لعلامة خطر . وأنا ضجرة . أما سمعت ؟ . . ضجرة معي إذن . . وأحلامها معلقة بفارس التلفون . . ولكنه أنا ياحمقاء ! لقد وقعت في مرة أخرى . وقعت ولن أستطيع التراجع . . (يخفض من السرعة) وحينما . .

هي – (لزوجها) لو مررنا فاصطحبنا علي وزوجته . (لنفسها) لا يرد . لم يسمعني . بل سمع . ولكنه لا يريد أن يكون علي معنا . . أتراه سيحاول ما حاوله سابقاً ؟ انك تكابد بصعوبة عنادك يا رافع . وتجعلني أتحمل واياك . وانني لاتمناك الآن . فان كنت أنت هو الأحمق الذي يخابرني . فاني والله لأحقد عليك . وأريدك . ولكن سيتاح لي أن أتأكد . اما رأيت يابلهاء أن المجهول يتصل بك دائماً في وقت لا يكون فيه رافع في البيت . ألا ترين ؟ . تلك حقيقة تبدو الآن أوضح من الشمس . فكري . هل سبق أن أتصل بك صباحاً . صباح الجمعة مثلاً ؟ ولكن انتظري . لقد أخبرته مرة . متى ؟ أنسيت ؟ كان يحلق . ولكنه لم يأبه . ولكن ما أدراني . كان . .

هو – (يوقف السيارة في منفسح يقع عن بعد من السينما) إذا كنت حريصاً على حياتي معها . . يجب أن أقلع . . أقلع تماماً . . والا ، فلن تستطيع . . يجب اذاك أن تمضي قدماً . . حتى وان هدمت حياتي ؟ أجل . . . (يصفق باب السيارة بقوة . . ويأخذ غادة من يدها . .)

هي – (مستشعرة ضغط يده على جسمها) . . ولكنني اريده . . فليفعل ما يشاء . . فليعبث (تصعد وإياه الدرج المؤدي الى الصالة) أريده . . أريده . . أريده . . أريده . . (تلوح ابتسامة على وجهها)

هو – (يتابع بعينيه فتا فتاة تصعد السلم أمامه) كلهن سواء . . كلهن يملكن أردافاً . . وأفخاذاً . . ونهوداً . . وطعمهن واحد على الفراش . . ولو كان ممكناً . . أخذت هذه الفتاة ومددتها أمام زوجتي . . تف (يدخلان الصالة)

هي – (متقدمة في الصالة المظلمة) هو . . أو سواه . . انه لشيء يستحق المغامرة . فأيهما تفضلين ؟ أيكون المجهول هو . . أو سواه . . أف . . لا أكاد أرى شيئاً . . (الى عامل السينما) النور من فضلك !

هو – تقدمي .

هي – أين ؟

عامل السينما – من هنا

هي – بدأ الفيلم ؟

(صدى ضحكات خافتة من الجانب)

هي – (هامسة) ولكنه ليس الفيلم . . لم يبدأ الفيلم بعد . . (لنفسها) ما باله لا يتحدث ؟ (هامسة) رافع !

هو – (لنفسه) لينة مثل أفعى ﴿هذا﴾ نعم .

هي – أتراه الفيلم ؟ ﴿كمن تخاطب نفسها﴾ أوه . . بل هي المقدمة . .

هو – سيبدأ الفيلم وشيكاً . .

﴿حركة وراء المقصورة . . أصوات باعة . . أشباح في الظلمة﴾

هو – ﴿في نفسه﴾ كل شيْ غير حقيقي . . في الظلام كل شيْ يملك الخداع والكذب . . وانه لأتعس رجل ذاك الذي تخونه زوجته ﴿ينظر اليها﴾ لشد ما تبدو أنيقة في الظلام . . أكاد لا أتبين الشامة في خدها . .

﴿صوت ضحكة نسائية عن قرب﴾

﴿يبدأ الفيلم﴾

هي – ﴿في نفسها﴾ ابداً . . ليس الصوت صوته . . ولكنه شيْ في النبرة عندما قال «مساء الخير» . . أف فلأ تابع الفيلم . . والا فلن أفهم شيئاً . .

هو – ﴿يشعل سيكارة﴾ ابداً . . تتمناها . . مستحيل . . نعم . . لا . . ﴿يده تنقر بعصبية على مسند الكرسي﴾ وعدا هذا . . فالمقصورة ليست خلفية . . سيراك الناس . . فاعقل . . اذن ، ألمس يدها فقط . . اخجل . . يضم اصابعه على بعضها بشدة حا ل ان تتنبه للفيلم أنتبه . . لا تجعل من نفسك أحمق . . ﴿بعد نصف ساعة﴾

هي – ﴿مستشعرة يد رافع على يدها﴾

هو – (لنفسه) هيا . . هل أضجرتك يدي ؟ أية صدفة أن تأتي الى هذا الفيلم ! . يقال في أصل الحكاية أن «عطيل» يخنقها بقبلة . . أيمكن ذلك ؟ . . كان «عطيل» بغلاً كبيراً . . والغيرة ضعف . . هه ! (يشد على يد غادة) لولا الرغبة في الجنس . . حب التملك الذي نتعلمه . . لعل افكاراً كالتي راودتني مرت بذهن عطيل . . ولكنه كان ساذجاً . . بسيط التفكير . . غير معقد .

﴿وجه عطيل يملأ الشاشة﴾

هي – (تستوعب يد رافع براحتها . . وتمسح عليها . . ثم لنفسها) تراه هو؟ حسنا . . ان كان هو حقاً . .

﴿ينقطع العرض لأمر ما . . وينضاء قسم من الصالة . . ويرتفع لغط الناس وصفير الصبيان . . ﴾

(بعد ساعة – في غرفة في المنزل)

هو - - (يصب لها كأساً) هيا . . حاولي أن تشاركيني . .
هي - (بشيء من قلق) ستغدو ثملاً . . كفى . .
هو - (بلجاجة) لابأس . اشربي قليلاً . . هذا كفيل بأن يقتل الضجر . . (لنفسه)الاحتماء وراء السكر أسلوب سخيف . . (يخاطبها) جربي أن تثملي مثلي . .
هي - متعبة . . الساعة الثانية عشرة . .
هو - (بالتصاق) جرعة واحدة . . . ها ؟ واحدة . .
هي - (قلبها يدق بعنف) .
هو - (متلعثماً) والآن إشربي . .
هي - (تجرع مرة أخرى) هه !
هو - (بلهفة) أكثر . . أكثر . . (يشدها اليه)
هي - (تتململ بين ذراعيه دونما سبب)
هو - (يجرها الى الوراء ، فينسكب الكأس)
هي - (بنعومة واستنامة) أوه . . رافع . . (تشد رأسه الى صدرها)أوه . . (بعد ساعة)
هو - (لنفسه) أنا أكبر سخيف . . (يغمض عينيه بسعادة . .)

*****

أنى لها أن تستطيع التصرف بدونه ؟

في المدرسة ، وقفت متعبة أمام تلميذاتها ، تحدق بهن بكلل ، وفي جسمها طراوة . . وخدر . . وذهنها لا يطيق الحركة . وعبرت الصف وهي تقول لنفسها : «أحياناً يبدو لي ، رغم كل ما مضى ، أنني مازلت لا أعرفه . . مازال فيه شيء أجنبي . . » . ووقفت هنيهة ، وتطلعت الى طالباتها وهن يكتبن الانشاء .

واستطردت أفكارها : «عبثاً افكر . هو أو سواه . »واستذكرت المرة الاولى التي تحدث فيها . كان ذلك ليلة أن أختصها لانه تأخر في العودة . وقطعت خواطرها :

– ست . .

– نعم يافريال !

– أما هكذا تكتب «سمْ»

– الهمزة على كرسي الياء . أجل .

كل ماتستطيع التثبت منه الان . أن المجهول لم يحدثها مرة ورافع في البيت . . وبعد ؟ إن نبرة ما في صوت رافع . تشبه نبرات الرجل في التلفون . و و . . .

– ست لقد انتهيت !

– حسناً ، راجعي يا نوال ماكتبت . إسمعن جميعكن . راجعن ماكتبتن قبل أن تسلمنه لي . مفهوم ؟

وعادت تؤكد لنفسها : «يجب أن أتأكد ! »

– كيف ؟

– لابد ثمة طريقة .

– جاهيه . إذا تحدث ، قولي له : كفى لقد عرفتك يارافع !

– سخافة . ان كان هو ، فلا يصح أن يعرف انني اكتشفته . .

– أجل هذا شيٌ مهم . يجب الا يعرف . إنما ، كيف ؟

– اسمعي . . هناك طريقة . .

– ها !

– أحسن طريقة . . اذا اتصل ، فضعي السماعة جانباً ، وأسرعي الى بيت الجيران ، واطلبي العيادة . فان كان مشغولاً . .

– أوه . . حقاً . ولكن . . لنفرض أن تلفون العيادة كان مشغولاً صدفة !

– يمكن عندئذ ان تجربي مرة أخرى . . وأخرى . . الى أن تتأكدي . . وقرع الجرس . .

في الطريق ، أحست شيئاً من الراحة . . وسألت نفسها :
– ماذا إن تأكدت ؟

وأحتوتها الوحدة في البيت . لن يعود رافع اليوم للغداء . . والوحدة كئيبة . . والجو غائم . . وكل شئ يبدو مبهماً . . ولكن في جسمها احساساً غامراً بالشوق . . وملكها حنان لم تستطع دفاعه . وخيل اليها انها قد يمكن أن تغدو أماً . . ويكون لها بعد أشهر طفل : «أسميه زهير . . . . »

وركبها القلق من جديد . . قلق غيرما سمح ولا متعب . . مالذي تريده ؟ لم تكن تستطيع التملص من فكرة أن زوجها هو «المجهول» . وعندئذ ، كان متعباً لديها ، أن تفكر في دوافع فعلته ، وفيما يوحيه ذلك من عناء ، وكبرياء ، وتحد . . «ان كنت أنت حقاً . . قصيراً . . . »

وراحت تنتظر التلفون . .

الخامسة . . السادسة . . السابعة . . السابعة والنصف . . وامتلأت أعصابها توتراً . قاربت الثامنة ، وما عادت تتحمل . .

اتصلت بالعيادة . فوجدته قد غادرها . وما عتمت ان سمعت صوت سيارته عند الباب .

في تلك الليلة حلمت أحلاماً مزعجة . رأت كأن رافع عائد من الحرب ، يرتدي ملابس عسكرية ممزقة . وبدا لها أنها تكره الحديث اليه ، وودت لو تصرخ . . أرادت ان تقول «أنا لا أعرفه . . انه ليس زوجي . . . » . . وأفاقت . .

وحلمت مرة أخرى ان اباها يقول لها اشياء داعرة : كان يجلس الى جانبها بهدوء ، كان له نفس الصوت والملامح . . الا انه كان فتياً . ثم ما لبث ان مال عليها وقبلها ، فكظمت وهي متضايقة أحساساً بنشوة . . واقشعر جسمها ، وافاقت . .

كانت السماء تمطر بغزارة . وكان الجو يحمل في رطوبته أنساماً لطيفة . . فراحت تتنفس بعمق . . ومالبثت ان سقطت في إغفاءة اخيرة .

* * *

(١٥)

١٧ كانون الأول

«لم أنم الليلة يارافع !

والآن ، والساعة تقارب الثانية بعد منتصف الليل ، فكرت ، أن أحسن ما أفعله هو أن أكتب اليك . وهي لعمرك المرة الأولى التي أكتب اليك فيها أيها الحبيب .

إنني ساهدة من أجلك – سهاداً لا أكرهه ، ولا يحفظني عليك فيه ، أنك قربي ، تنام على سريرك ، نومة بريئة مثل طفل ذكي مدلل . . لايحفظني . . بل

يسعدني كثيراً أنك سبب سهادي ، وماذا أقول ؟ سبب هذه الساعات المشدودات التي أعيشها ، والناس . . كل الناس نائمون !

أنت حبيبي . . زوجي . . الرجل الذي أحبه وأحترمه وأخافه وأخاف عليه . .

أجل . أنا لم أقل ذلك من قبل ، وما كان أن أقوله ، على أنني اللحظة غير نادمة لأنني أسجل هذا ، وكيف لي أن أفعل ؟ وأنا أفكر بكل عرفان وشكر ، بانك وهبتني ، وتستطيع أن تهبني أجمل أيام العمر وملأتني وعوداً مشرقة . . وتعلمت أن أصدق مواعيدك !

فنم يا رجلي الحبيب . .

انني هنا ، ساهدة من أجلك ، وملء جوانحي حب صادق ، وإخلاص وأحلام ، ما كان لسواك أن يقتعني بانها قريبة من الارض التي أسكن عليها . . أحبك . .

ومن عجب أنني لا أشعر بالحرج المعهود من أن أردد أمامك حبي وبقدر هذا الحب . . بقدر ما أكن لك من عرفان . . أتمناك . . وأريدك . . وأحرص عليك . . ويلوح لي ، بل أنا مصممة على أن أنتقم منك . . وأعذبك . .

أجل يا زوجي الذكي المكابر . .

لست واثقة من أنني سأستطيع . ولكنني سأحاول . وأنت لن تلومني . . سترى أنك لا تملك – يوم يتاح لك أن تقرأ هذه السطور – أن تلومني . . لانك ماتزال ، وستبقى عندي منصفاً وذكياً . .

أنت تنام هنا يا حبيبي ، عيناك مغمضتان . . وخصل من شعرك تتدلى على جبينك ، ولقد غالبت في نفسي دافعاً شديداً ، لأن أقوم الآن ، وأوقظك ، أجل ، أوقظك في هذا الهزيع المتأخر ، وأقول لك ببساطة ، ما أنا بسبيلي لأن أكتبه إليك ، فأخبرك : بأنني لست حاقدة عليك ، وبأنني أغفر لك . . وبأنك مازلت حبيبي وزوجي . . . ودنياي . .

لم أفعل . . وما كان أن أفعل . . وإنني لشاكرة لأرادتي : أنها تملك الوعي الذي

يبارك لها مقاصدها ، حتى وإن كان في ذلك عذاب موقت لك ، ولكنه – هكذا أريده – عذاب شديد ، أنت أهل له ، بكل قوتك ونزواتك وذكائك ! !

لست غاضبة عليك . بل لقد ضحكت لك حيناً ، وصفق لك خيالي باعجاب ، ولوهلة ، خيل إلي أن كل شيء على ما يرام ، وحسدت نفسي أن تكون أنت لي ، بكل ما فيك من عمق وأصالة وكبرياء . . و . . حماقة ! وإلا فهل ثمة وصف منصف لما حاولته معي ، غير هذا يا حبيبي ؟ !

يالك ! ترى ما الذي كنت تبيته لي ولنفسك . . لحياتنا التي كنت أخشى الاقرار أحياناً بروعتها حتى مع نفسي ، خشية أن أحسد نفسي ؟ !

أيها الحبيب . . يا طفلي العظيم الشقي . . يا رجلي المدلل . . ماذا كنت تزمع أن تفعل ؟ وأي دافع ظالم ذاك الذي أملى عليك لعبتك الذكية المخيفة ؟

لم أنم الليلة . . لا أنام !

وإنني الساعة أشد ما أكون هدوء . . . وصفاء . . وحباً – يجب أن أقر ذلك – ثم بعده ، أشد ما أكون تصميماً على أن أذيقك بعض الألم الذي كنت في سبيلك لان تذيقه لكلينا . . تجعلنا نتقاسمه طول العمر . . ولماذا ؟ دونما مبرر ، ولا منطق . . اللهم إلا المبرر الذي يدفع الطفل لأن يحطم لعبته التي كان قبل لحظة سعيداً بها أشد السعادة !

لم أبحث . . ولن أبحث لك عن مبرر لما فعلته . . لما كنت تنوي فعله ، فهو مهما يكن ، مبرر لا أريد أن أقتنع به ، وأحترمه ، لانه ينتقص منك . .

ما الذي كنت تنويه لحياتنا يا حبيبي ؟ وكيف هان عليك أن تلعب بالثقة التي تشدنا ؟ بالحب . . بالاحترام . ؟

رباه . . إنني لاتصور الآن ما كان ممكناً أن يحدث ، لولا أنني إكتشفت لعبتك ، فعرفتك ، بصوتك المصنوع ، بنبرتك الملهوفة المختفية وراء سماعة التليفون ، ماذا ؟ إنني أسأل نفسي ، ماذا لو أنني لم أكتشف ذلك ؟ ثم ماذا لو تركت لنفسي أن تستدرج ؟

إنني لأعلن الساعة ، وبكل وضوح . . ودونما أي تردد ، أنني لست واثقة مما

كنت في سبيل أن أنجر اليه . . لست واثقة من انني كنت أملك وقف تطور مشاعري مع تدرج لعبتك ، وما كنت تدعوني اليه !

يا حبيبي . . كنت تريد ان أقع في حب هذا الشخص الذي أردت خداعي به ؟ حسناً ! . . انني أعيد عليك بصراحة : ان «رجلك» هذا كان جديراً بأن يأسرني ، كان يملك كل وسائل النجاح معي . . ألم يكن يحمل لونك ، ونكهتك . . ونبض انفاسك ؟

أحلف لك – أنني لو لم أكتشف اللعبة ، لكنت حقيقة بأن أغرم به . . هكذا : بالضبط كما كنت تخطط . . وتمهد . . وتستدرج بصلف وذكاء !

أنت ذكي . .

ولكنني ، وحمداً للظروف ، أذكى منك . لا تغضب . إعترف بأنني هذه المرة أذكى منك . . لقد كنت سأحب هذا المجهول – يلوح لي الآن أنني كنت سأجن به حباً . .

ولا تلمني . أنت أردت ذلك !

بل دعني أعكس الأمر ، تأمل . . لو أن فكرتك العابثة خطرت لي ، وكنت أنا التي تلعب هذه اللعبة ، أفضامن أنت لنفسك ، يا زوجي الحبيب ، أنك لن تقع في حب هذه المرأة المجهولة ، التي تحدثك حديثاً فيه كل الصفات التي كانت في فترة ، سبباً لأن تختار على اساسها شريكة حياتك ؟

لكم تبدو لي لعبتك الآن ، ذات مغزى معذب . . معقدة . . خطرة وسخيفة !

أجل يا حبيبي . . لقد كنت سخيفاً وظالماً . وأنت باعتقادي ، مصاب بالغرور ، وفقدان الثقة . . أنت مريض . . ومن حقي أن أقلق عليك . . لأنني حريصة على أن تكون لي ، معافى . . جباراً . . تملأ بعنفوانك حياتي . . ولسوف أسقيك الدواء . . وهو وحياتك مر علقم . . سأجلس عند قدميك كما يليق بزوجة مخلصة ، وسأسقيك الدواء ، جرعة ، جرعة . . وأبكي . . أبكي فرحاً ، لأنني إذ أفعل ذلك واثقة من أنني أصون حبي . . وحياتي ، وكرامة الزوج التي يجب أن تهمك . .

أيها الحبيب . . يا زوجي المدلل الطفل . . لشدة ما تغريني نومتك الآن : أن أقوم اليك . . وأمسح على جبينك . . وأشد على شفتيك . . وقد أفعل . . إنما لن يتغير في أعماقي التصميم الذي وطنت العزم عليه . .

وغداً . . سأصغي اليك من جديد في التليفون . . وسترى . . سترى المرارة التي أعدها لشفائك يا حبيبي . .

وفي الوقت الذي ستكون متشبثاً فيه بعبثك ، وأنت تحبك ألاعيبك ، أن تبذل جهدك لاصطياد زوجتك ، سأكون عندك يا عزيزي ، أبتسم ، وأنا أقطع خيوطك . . وأعاقبك عليها . .

الساعة توشك أن تكون الثالثة . . وقبل قليل انقلبت في نومك ، وأولتني ظهرك ، وهمهمت شيئاً . . ومن النافذة . . خلال الستارة التي أسدلتها قبل أن تنام ، أرى اتساع نجمة تغمز لي . . لقد صحا الجو . .

سأنام مطمئنة . . وسأتلهف غداً الى حديثك . .

* * *

(١٦)

السبت ١٨ كانون الاول .

أنت عنيد ومشاكس يا حبيبي . .

شغلت طوال هذا اليوم بالتفكير فيما أنا مقدمة عليه . وأصارحك : انني لفترة تهيبت إرادتي . وكانت المشكلة التي تشغلني هي : ما هو الحد الذي أستطيع المضي فيه ؟ . . واذا كان . . فكيف يمكن الا اهدم ماتحاول أنت هدمه ؟ كيف احتفظ لنفسي بخط الرجعة . بحيث أكون ضامنة ثقتك - وهي غالية جدا - في الوقت المناسب ؟

الامر صعب يا عزيزي . وإنني لأخافه وأتهيبه . وسأظل أبداً قلقة لشيء واحد ، هو أن ذهناً كذهنك ، لايعدم أن يجد مطعناً في كل ما يمكن أن أتخذه من ضمانات واحتياطات . .

لقد بدا لي أولاً ، أن كتابتي هذه ستكون في المستقبل حجة أستند اليها ، بأنني كنت اعرف . . كنت اعرفك . . ولكنني خفت احتمال أن تشك ، وبساطة مريعة وتتساءل «من يضمن انها لم تكتب بعدئذ ؟ .»

ثم خطر لي أن اودع هذه الرسائل عند الدكتور علي ، فاذا أن الأوان ، أحلتك إليها . ولكن هذه الفكرة أيضاً كانت تحمل نقطة ضعف ، فستوحي إليك ، اننا اتفقنا على خداعك . . . ومن يدري ؟ إن لك خيالا واسعا فريدا يا حبيبي . . يا حبيبي . . ولهذا ، فعلي أن أفكر بطريقة أكثر ضماناً . . ولابد إنني واجدتها . .

إنما ، يا زوجي الحبيب . . يا رافع العزيز ، كيف أنت وما تتركه لعبتك في خيالك من أثر ؟

قلت : انك عنيد . . أما ترى ؟

لم تنس اليوم موعد حديثك . قلت : «مساء الخير» . وكنت قد أعددت نفسي لذلك . فاجبتك متظاهرة بأنني اخني ، وانا اغالب ضحكة ، فلقد تخيلتك وأنت تحاول اصطناع الصوت الذي تخاطبني به . . وهتفت لك بعذوبة : «مساء النور» . وما كان أشد عجبي حين سارعت ، فاغلقت التليفون . .

الم أقل لك ؟ إنك عنيد . . وذكي . والا فأية براعة هذه التي تصطنعها لاصطياد زوجتك ؟ ترى ما الذي كنت تقوله لنفسك حين أرد عليك مدعية إنني «أختها» . . كيف كنت تتألق وأنت تكشف أكاذيبي ، حاسباً إنك تستغفلني . حسناً . لن تفعل بعد اليوم .

اقول لك الحق ؟ لقد أزعجني إنك أغلقت بوجهي التليفون . ولكنني واثقة إنك لن تغلقه الى الابد . .

بعد قليل ستترك العيادة . . وتهرع إلي ، وفي ملامحك من الرجولة ، والبراءة ،

والطيب ، والخداع ، مقادير رهيبة ، أحس أحياناً ، وأنا أتأملها بالخوف منك . .

لشد ما يرين الصمت في حبنا . . ووحدتي ثروة . ساقوم بعد قليل لاقرأ الكتاب الجديد الذي اشتريته . . وسانتظرك بصبر . . بفارغ الصبر . .

*****

الاحد ١٩ كانون الاول

لن أهدأ حتى اعثر على طريقة اضمن بها مسايرتي لك في لعبتك دون تهديم . ولا أكتمك ، ان ذلك يكلفني الكثير من الشرود والارتباك . . حتى لقد اخطأت اليوم في شرح الدروس للطالبات . . ولم ادرك ذلك الا بعد أن نبهتني إحدى طالباتي الذكيات . وقد كان ذلك كفيلاً بأن يخجلني . . ولكنني كنت مشغولة بك ، وقدرت مبلغ ما تأخذ من وقتي وأعصابي أيها الرجل الذي أستحقه . . أستحقه ، والا ، أفكان لامرأة سواي أن تحتمل ، قل : أن تفهم نزواتك ، وتباركها ، وتتبناها ، وتتحمس لها ، فعلي ؟

إنني لأستذكر كيف عدت أمس الى البيت ، وفي ملامحك ذلكم الكبرياء الفارغ العذب ، وأنت تطالعني بنظراتك ، وكانك تقول لي «إنني ألعب بك . .»

آه . . ما أشد ما يثير في ذلك من حنان ، فأروح أرثي لمخاوفي السابقة من طغيان شخصيتك ، وأدرك بجدة ، إنك بحاجة إلي ، كما إنني بحاجة إليك ، واننا في هذا أنداد حقاً . وما مخاوفي السابقة في ألا أساوقك ، الا أوهام أعترف إنها أتعبتني . وكادت تقتل ثقتي بنفسي . . وأكاد . . أكاد أحقد عليك بنفس الدرجة التي أحمد فيها لنفسي ، إنني لم أكن من السذاجة بحيث تستطيع استغفالي . .

لشد ما أدرك الساعة سر نزواتك الجنسية خلال الايام الماضية . . . وسر احساسي بجدة ما كنت تهبه لي ، حتى بدا وكأنني اعاني من جديد إحساس عذراء !

وأنت زوجي يا حبيبي . .

في تلك الليلة قلت لي : إسمعي يا غادة . يجب أن نفكر في شهر نقضيه في الخارج . . وتحمست . . ورحت تستطرد أحلامك . .

واقر لك . . أفعل ذلك بحب وإخلاص ، إنك اذ تتحمس ، تملك أن تبعث حماستك في كل من يصغي إليك ، حتى وان كان ماتتحمس له مجرد أكاذيب . . أكاذيب ، لاتصدقها أنت نفسك حين تتأملها . . .

يتساقط المطر الساعة ، ملحاً . . رتيباً . وهي الرابعة ظهراً . وبعد قليل سأقوم فأكوي لك قميصك ، وأعد لك ملابسك لتغيرها كعادتك . كل أربعة أيام . . وأنت معي . . أحسك حيث تلفت . وفي هذه اللحظة ، أرفع عيني الى الجدار ، فأرى الى الصورة الزيتية التي علقتها أنت بيدك قبل شهر . . الصورة كما هي . . مائلة الى اليسار قليلا . وأذكر بطيب : لقد سألتني : ها ؟ كيف تريدها ؟ قلت لك : مائلة الى اليسار . .

وركبك العناد ، هكذا : فجأة وكعادتك . وانكرت : بل أنت واهمة . . أنظري . . وقد كنت أدري اننا يمكن أن نختصم هذا ، وما كان لي أن أعاندك ، ذاك لأن العناد وإياك لديذ ، ولكنه . . متعب . .

إنني أنتظرك يا حبيبي . . أنتظر صوتك ، وأفكر ، أبداً أفكر أيها المحتال العجيب . . أفكر فيك ، ولك ، ومعك ، واتأمل بشغف دوافعك ، وأحياناً ، بصراحة ؟ أكاد أكرهك ، لأنك تبدو لي بطل قصة لم يحركها المؤلف كما يجب ! !

أفكر في لعبتك الآن وأتساءل ، إن كنت قد صممتها . . وخططت لها . . ويعذبني أنك إن فعلت ، فانت خبيث يا حبيبي . . وأنا لا اطيقك خبيثاً . . ولا أنت . . فانا أعرف جيداً ، أن ذهنك قد ينطوي أحياناً على مشاريع لئيمة . . ولكنك لا تنفذ : لعلنا بهذا نتشابه . . وتلك واحدة من مشاكلنا . .

لحظة واحدة يا حبيبي . . أن جرس الباب يرن .

. . . . . .

شغلت ساعة فقد جاء لزيارتي طالبات من المدرسة . . بنتان حلوتان . . بريئتان . . ومن يدري ؟ لعلها غير بريئتين . . فالبراءة غدت تبدو تخلفاً في هذه الأيام !

أجلستها في غرفة الضيوف . . وتحدثت واياها . . فاشعر تاني بسني . لست أدري لماذا ؟ لقد ذكرتاني بسلوكها الصبياني المنفعل ، بأنني كنت مثلها ذات سنة . . قبل كم ؟

المهم يا حبيبي أن صورتك كانت معلقة حيث تعهد من غرفة الضيوف ، ونظرت إحدى الصبيتين – أختلست نظرة مؤدبة اليك ، ثم التقت عيناها بعيني ، وابتسمت ، فابتسمت لها بحب ، وقلت لها :

– أنه رافع . . زوجي .

وهمست الثانية بعلوية ، وحياء ماكر :

– يشبه «روبرت تايلر . .»

لم يعجبني ذلك . ليس لأنك أوسم أو أقل وسامة من الممثل الأمريكي . . بل لأنك أنت ، ولن أسمح أن تشبه أحداً !

يا حبيبي أن «فيروز» تغني وصوتها يملأ الصمت الذي ملأ البيت بعد انقطاع المطر . .

لقد كنت في أيامنا الأولى ، وفي حالة كهذه ، كفيلة بأن أحمل «الترانزيستور» الى سماعة التليفون ، وبشعور مراهقة . . ودونما كلام ، أروح أسمعك الاغنية ، فاذا أنتهت أقفلت السماعة بهدوء . .

لماذا كففت عن ذلك ؟

أيكون لأننا كبرنا ؟

فتحت النوافذ في الهول للانسام المغسولة . ولبرهة أسندت جبيني الى حافتها المنداة . وأنتابني شعور من الحزن : أن تكون ظالمي ، وأنا أحبك ، حتى لأخجل من صمتي . .

جاوزت الساعة السادسة . وهذا موعدك . . وإنني لأتوقع رنين جرس التليفون ، وسماع صوتك وأنت تهمس «مساء الخير» . . ترى لماذا تصر على هذه البداية ؟ وأنت ميال الى التلوين ؟

أتحمس للانتقام منك . وتراودني رغبات قاسية ، كنت حقيقة بتنفيذها ، لولا أنني لا أعرف حباً سواك . وحبذا : أسمع يا حبيبي . . حبذا لو كان لي سواك من أحبه . . إذن لعلمتك كيف تعبث . .

لا تصدقني . . بل صدقني إن شئت . سبان . أنت بطبعك لا تصدق احداً . . حتى نفسك . . وهي لعمرك شتيمة !

هي السادسة والنصف . . . متى تتصل ؟ فان إنتظارك يتعبني !

ملاحظة : تذكرت الآن حكايتك عن أختك المزعومة «ابتسام» . . ترى ما الذي كنت تقصده ؟

* * *

(١٧)

الاربعاء ٢٢ كانون الأول

حسناً . . سنرى متى تكف عن العناد .

منذ ثلاثة أيام ، وأنت تتصل و :

- مساء الخير .

فأرد عليك . . بنفس الالحاح . . ونفس النبرة . . وباسلوب الأخت

- مساء النور .

فتغلق التليفون . ألا قل لي ماذا تريد ؟

أتريد أن تؤدب . مرحى ! ! من التي تريد تأديبها ؟ . وأنت تدري أن لا أخت . . ولا سواها . .

هه ! ولكنه الذكاء : فأنا عندك لاأعرفك ، وحيث أنني أتقمص الشخصية الثانية . . فأنت تكايد لتسيطر ، وإنني لأدرك خفتك وراء كل ذلك . وأغضب لأنك لا تستطيع أن تفهم إصراري على التخلي عن دوري السابق – دور المرأة المتزوجة المتحفظة الصامتة . . أيها الحبيب . . لا يصح أن يغيب عنك السبب . . فأنا الآن غير مخيرة . لأني لا أريد أن أبقى صامتة بعد اليوم . . بل أنا أريد أن أتحدث اليك .

لا عليك أيها الحبيب . لابد أن تتخلى عن عنادك . . أو عن لعبتك بأسرها . . ولا أحسبك مستطيعاً . .

لكم كنت متمالكاً نفسك في هذه الأيام الثلاثة . . وكعادتك حين زارتني المديرة ، كان حضورك متألقاً . . حتى لم تملك المرأة أن تكتم اعجابها بك حين أجتمعنا في اليوم الثاني . فقالت للمدرسات : بانك محبوب !

أتدري يا رافع ؟

خطر لي اليوم أن استعمل جهاز التسجيل الذي اشتريته هدية لك في عيد زفافنا – أن أستعمله في تسجيل أحاديثنا ، كشاهد ، كضمان . . ولا أدري إن كنت سأنفذ الفكرة أم لا ؟

إنني أخاف ثقتك يا حبيبي . . وأخاف نفسي . . ولن تفلت من اللعبة . . فهي اليوم تنقلب ضدك !

يالله . . لشد ما تؤلمك الخسارة !

ان ملامحك وأنت تخسر ، تغدو قاسية ، ويبدو في وجهك شيء يتحفز للهجوم . . .

اواه إيها المدلل . . إنك قد تخسر أشياء كثيرة ، إنما كن على ثقة ، إنني لن أسمح لك أن تلعب بي . . وأن . . وأن تخسرني . فلن أحتمل ذلك ، وأنت نفسك لن تحتمله . ولابد لك الان من أن تقدر سبب امتناعي من طلبك يوم زرنا منزل الدكتورة

«فريدة» واقترحت أن نلعب «الكونكان» . . فانا أخشاك دائماً في اللعب . . لا تعترض . . لقد جربت ذلك كثيراً . . ألا ترى ؟ أنك لا تحتمل الخسارة . فان لعبت شريكة لك . كان علي أن أحذر أيما زلة . لأنك لن تني إذا خسرت بعدئذ أن تحملني السبب . . . ولن أطيق ذلك . .

ولماذا لا أصارحك ؟ إنك حين تلعب لا تتوانى عن أن تغش . ومن أسف أنني ما كرهت فيك ذلك . بل ما استطعت إلا أن آخذ محاولاتك فيه بدعابة . . حتى أصدقاؤك تضحكهم محاولاتك . . ولا تحفظهم عليك . .

أنت محظوظ . . يدي على الخشب !

لم أعرف أحداً يكرهك . ولكنك متعب . مثل تلميذ ذكي في درس يلقيه معلم غير واثق من معلوماته . .

سألتني عنك اليوم (احسان» زميلتي . .هل تذكر؟ قالت لي ببساطة حين افترقنا (سلمي لي على رافع» . . ولم أدر . . هل أغضبني ذلك . إم أفرحني ؟ إنما بدا لي بعدئذ . أن فتاة مثل احسان . يمكن أن تسلبك مني ولو الى حين . . انني لأذكر الساعة نظرتك اليها . . ساعتها . غضبت . . لا لأنك فعلت ذلك مع احسان . فما يؤلمني أنك قد تنظر لسواي . . أو أن تقيم علاقة عابرة بواحدة . أو بأخرى . . فليس من رجل متماسك لا يقع في ذلك . . إنما آلمني أن تصنع ذلك أمامي . . فقد كان فيه انتقاص مني . . وقد قلت لنفسي : «لابد أن إحسان ستفهم خطأ انني لا أملك في نفسك المكان الذي أملكه حقاً . . ولذلك (وقد كان من الصعب أن إشكو اليك) كان من الواجب أن إحاول الدفاظ عن نفسي . . وأن ألقنك درساً لابد انك ابتلعته بجدارة . . أم تراك لم تفهم ؟

ليلتها قلت لنفسي : «لماذا أغضب ؟ لو أن رافع – واسمع جيداً انني أقول مثلاً – لو أنه طلب مني أن أمهد له علاقة باحسان . فماذا يكون موقفي ؟

ساعتها أجبت نفسي بنوع من القروسية . انني ما كنت لأتوانى عن ذلك . من يدري ؟ ربما أكون قد كذبت على نفسي . . ولكنني في تلك اللحظة كنت صادقة . وحقك . . صادقة من أعماقي . .

لا يطمعك بي حبي . . فأنا أحمل في جوانحي قلباً كبيراً . . وهذا القلب له كرامته . . أوه . .

عبثاً أفلسف مشاعري . .

ستمر علي «إمية» بعد قليل . . وسأنزل وإياها الى السوق !

*****

الخميس ٢٣ كانون الأول . .

لا تقلق ياحبيبي . .

ان ما ألم بي صباحاً . لم يكن إلا وعكة بسيطة . وأنت تدري جيداً ، أن صحتي ستكون أبداً على مايرام . أنسيت ؟ ألم تكن أنت الذي قلت لي يوم خطوبتنا : أن لك صحة نموذجية !

ومع هذا ، فقد أعجبتني العناية واللهفة اللتان التمعتا في عينيك وأنت تجس لي نبضي ، وتقدم لي دواء ، ثم تهرع فتعلن للمديرة أنني لن أستطيع الذهاب الى المدرسة اليوم . .

لقد أصغيت اليك ، وأنت تقول لها : صباح الخير ، وذكرت نبرتك ، وحنان سابغ ، رنوت اليك من سريري ، وبرغم كل شيء ، حسدت نفسي أن أكون زوجتك ، وزاد بي الشوق ، الى أن آخذ المبادرة منك ، وبنفس المكايدة والعناد ، وأن أكيل لك الصاع صاعين . فأنا أخشى أن تحين ساعة أتخلى بها عن تصميمي في أن أمضي وإياك فيما انتويته حتى النهاية . .

طوال النهار ، كنت أفكر فيك ، وكنت أحسك معي في وحدتي . انما كان وجودك لا يضغط علي بذلك الطغيان السابق الذي ألفته . . بل نوعاً من التجاذب المتكافئ . . وماذا أقول ؟ كنت أحس نفسي ، أكثر شجاعة وتماسكاً وتحرراً . .

وحين اتصلت بي في التلفون ، وسألتني «كيف أنت ؟» ، ضحكت لك بصفاء قلبي ، وتمنيت أن أقول لك أرق ما أملك من كلمات . انما ما كنت يا حبيبي لتحتمل مني ذلك . . فنحن لم نألف الحديث عن مشاعرنا . . لماذا ؟ يخيل الي أن علينا أن نتعلم هذه الرذيلة . . أليس كذلك ؟

الهدوء يغمر نفسي . . ولقد فرحت بزيارة زميلاتي . . وتمنيت أن تكون معي ساعتذاك . . فانا أعرف أنك تلذ صحبة الفتيات الجميلات . ولكنك عدت للبيت بعد ذهابهن ، وبقيت معي حتى الساعة السادسة ، ولم تتركني ، الا بعد أن الحفت عليك أن تذهب الى عيادتك . .

وها أنا أكتب اليك . . ولست أدري ان كنت ستتصل بي اليوم أيضاً . . . انني أنتظر . . .

* * *

(١٨)

الاحد ٢٦ كانون الاول

كنت واثقة أنك لا يمكن أن تهرب من الشرك – هذا الشرك الذي صنعته من قبل أنت بيديك . وانني لأتساءل الآن : ترى بماذا كنت تحدث نفسك ، بعد أن عاد الحديث بيننا من جديد ، وأقلعت عن اغلاق التلفون بوجهي :

وقلت كعادتك :

– مساء الخير . .

وأجبتك أنا أيضاً :

– مساء النور .

ولاأدري . ربما ختمتها بنبرة كالضحكة . أحسبني تعمدتها . وبقي الخط متصلاً . وأقول لك الحق ؟ لقد وجف قلبي ، وسمعتك تقول كمن نفد صبره :

– وبعد ؟

فاجبتك :

– اسأل نفسك !

وترددت ، وبدا أنني في تلك اللحظة سأكتشف لك كل شيء ، واعنفك بحب أيها الزوج الظالم الظريف . لولا أنك أسرعت تقول :

– حسناً . تفضلي . قولي ما الذي تريدينه ؟

هه ! أكبر مهوش في العالم . اذن فأنا التي تريد ؟ على إني ما كنت الآن إلا لأسايرك . فقلت بخبث :

– أن نتكلم . .

– نتكلم ؟ ماذا نتكلم ؟

فاجبتك باصرار :

– أي شيء . . انني أريد أن اصغي اليك !

– ومن قال انني اريد ذلك ؟

– اذن . . علامة تتصل بـ . . فا . .

وبان عليك التردد :

– انك تعلمين جيداً أنني إنما . .

وسكت . أحسب انك فعلت ذلك عامداً . وانا ألمح في نبرتك انتصارك . وهتفت :

– انما . ماذا ؟

وباقتضاب حازم قلت لي :

– أريد أن أكلم أختك . .

وسرعان ما تبين لي ، أن علي أن أحطم ثباتك فقلت :

- تكلم . إنها . إنها أنا . .

ها ؟ . ماذا ستقول ؟

- كفى مراوغة . .

وقاطعتك :

- ليس لي أخت . ألا يمكن أن تفهم ؟ انك تكلم نفس الشخص . أنا . . أنا غلواء !

ما كان لك أن تسلم . رغم انك تعرف الحقيقة جيداً . ان طبع المصاولة ، والمكايدة يتألق فيك . . على انني لن أسمح لك بأن تلعب إلا بالقدر الذي أريده . .

قلت لي :

- هيا . هيا يابنت . . ان ذلك لن يفيدك !

رباه كم أطربتني نبرتك : «يابنت . . » ها ؟ وحقدت عليك مداجياً مخاتلاً . .

وكان يعز علي أن أعود من جديد شخصاً واحداً . بعد أن تفاهمنا في شخصين .

ورحت تداورني ، حتى أيقنت انني لن اتراجع ، فما كان منك الا أن تستسلم . .

وهتفت بطفولة محببة :

- ولكنني . ولكنني لا أفهم . .

أوشكت أن أقول لك «مشكلتك أنك لا تفهم . . » على أنني ضبطت نفسي ، فقلت :

- هذا شأنك . لقد أوضحت لك الأمر . . .

وسكت رويداً . وجاء صوتك بعد ذلك عميقاً . حزيناً . معاتباً فيه دالة وألفة عجيبتان :

- لماذا فعلت ذلك ؟ ان كان حقاً ما تقولين . فلماذا فعلت هذا ياغلواء ؟

ليتك تكف عن تسميتي «بغلواء» ياحبي . فانني أكرهه ومع ذلك ، وضعت لك

ضحكة في إذنك . . ضحكة عرفت انها لن تريحك . وسألتني . وبدا أنك مرتبك :

– ها ؟ علام تضحكين ؟

ماذا تريد أن أرد عليك ؟

وخطر لي أن السخرية هي خير ما أرد عليك به بعد الآن ، بحيث أهدم ثقتك بنفسك ، وأقطع عليك حرية غرورك . وكنت موقنة أن هذا كفيل بأن يجعلك تقلع عن اللعبة بعد يومين . . اسبوع على الأكثر . . ولكنني آثرت أن أكون أشد قسوة . ذاك أن استفزازك الى حد الهزيمة كان سيريحك في الرد على أسئلة تشغلك – الاسئلة التي تدور حول الثقة والاخلاص . .

حسناً يارافع أنت تريد ذلك فخذ . . .

أجبتك بشيء من دلال :

– ألا يروقك أن أضحك ؟

– لا . .

وضحكت ثانية بنعومة . . كنت أريد أن أصدم عندك هذا الاسلوب المتعالي الذي تنتهجه . وهمست لك :

– لماذا ؟

– لانه لا يليق أن تضحكي بدونما سبب . .

يا حبيبي . . يا زوجي . . ايها المدلل المفسد : تشبه لهجتك لهجة معلم مستضعف بين تلاميذ مشاكسين . .

– من قال انني أضحك بدون سبب ؟

– كنت أتمنى لو بقيت ساكتة . . لو لم تخرجي عن هذا الصمت الموحي الذي كنت تلتزمينه . .

وهنا كنت محقاً . فانا أدرك بأنه ما من شيء في الحقيقة ، يعادل ما يمكن أن يتصوره خيال بارع . ومن ناحية مجردة . . كان يبدو لي ، أن سكوتي هو الاكثر إثارة ووقعاً . إنما في وضعنا . حيث يعرف أحدنا صاحبه . . حيث يكذب أحدنا على

صاحبه . فالأمر مختلف ياحبيبي . . ولا مناص لي من أن أتحدث ، وأنا واثقة أننا بأمكاننا أن نقول حواراً ذكياً . . لو سمحت حسب أن يستقيم بيننا الحديث . .

وصمتت أن أكف عن العبث . عن ان انفرك وأبعث فيك الاحساس بالخيبة . . وهمست برقة . .

– أنا آسفة . إنك على حق . . على أنني الى حد ما لست مسؤولة في أن تتخيلني على هواك . حسناً . أعدك بألا أضايقك بالرد عليك ! ! وابتلعت مناورتي بسذاجة . وهتفت :

– لا .

كان في صوتك نوع فاضح من اللهفة . .

– لا . . لماذا ؟

– الا ترين ؟ سيكون من الضعب الآن أن أحتمل موقفي القديم . لقد بدأنا ، ولن نستطيع التراجع . .

قلت كمن تغلب على أمرها :

– ولكن الحديث لا يكون بهذه الطريقة . ان الأمر لا يشبه أن تضغط زراً . .

– اصبت ياغلواء . .

– اسمع . لا تسمني غلواء . . بعد الآن . .

وهتفت محتجاً :

– لماذا ؟ . . ألم يعجبك الاسم ؟

– انه ليس اسمي على أية حال !

وترددت أيها الخبيث . وأنا اقدر ما يمكن أن يجول في ذهنك . وأسرعت أقطع عليك أفكارك .

– أيرضيك أن افرض عليك اسماً لا تريده . . كأن اسميك عبدالله مثلاً ، أو . . أو مرهون ؟

– ولم لا ؟ اي اسم سيسهل علينا مهمة الحديث . .

فقلت ضاحكة :

– حسناً يا مرهون

وسمعتك تضحك مجارياً . لم يكن هيناً عندك أن تجدني آخذ منك زمام الحديث .

– ليس اسمي مرهون ! !

– ادري (وأضفت بسخرية) أي اسم سيسهل علينا الحديث .

– ولكنني انتقيت لك أجمل ما أراه من الأسماء . وعللت ذلك . الا تذكرين ؟

تدفعني الى السخرية دفعاً ياحبي . فلقد أوشكت أن اقول لك انني أيضاً اجد المبرر لان أسميك «مرهون» . ولكنني ضبطت نفسي . وانا اتخيل مبلغ الفكاهة في أن اعلل لك التسمية . وقلت :

– اوه . ان الاسماء لا تعني شيئاً . بما تريد ان اناديك ؟

– ان اسمي . . حسناً . اذا شئت . فلتتعارف .

لم أملك سوى أن أضحك – وكرهت ذلك – ضحكة فيها قحة واعتداد ، وأسرعت أتمالك :

– ولكن علام ؟

– أتخافين ذكر اسمك . لا بأس . قولي اي اسم تحبين ان أناديك به ؟

– ولكن لماذا اخاف ؟ اسمي غادة .

يا حبيبي . . يا زوجي المسكين المتعب . قل لي . ما الذي تريده ؟ فلقد تلعثم التليفون حين ذكرت لك اسمي ، وتخيلت ملامحك ، وما يمكن أن تعانيه . ولم أمهلك . سألتك :

– وأنت ؟

قلت مرتبكاً :

– ماذا ؟

– أنت . ما اسمك ؟

وضحكت باقتضاب . وقلت :

– مرهون . .

– بل قل الحق . .

– علي . . اسمي علي ياغلواء . .

هه ! وهتفت بعناد . .

– غادة . .

– عفواً . . غادة . .

– ها ؟ . . والآن ماذا تبدل ؟ لقد عرف أحدنا اسم صاحبه . .

– ربما كان هذا فاتحة لان نعرف بعضنا اكثر . .

ياحبيبي لشد ما أنت متفعل ! الا ترى ؟ لقد نسيت حذرك ، فصوتك الآن هو صوتك الطبيعي . قلت :

– هل لذلك أهمية .

– من يدري ؟

– اذن دعنا نؤجل بحث ذلك الى الغد . .

ودون ان أمهلك قلت برقة :

– وداعاً . .

واغلقت التليفون . .

*****

الخميس ٣٠ كانون الأول

أنت اليوم بخير ياعزيزي . . فقد كدت تبل من «الانفلاونزا» التي ألمت بك ، وتركتك تلزم البيت منذ ثلاثة أيام . .

في البداية ، ذعرت . خيل الي أن ما تشكوه هو صدمة ، صدمة تطور الحديث بيننا . ذاك أنك عدت الى البيت بعد المكالمة الاخيرة واجماً متعباً . . بحيث لم أستطع سوى ان ألوم نفسي ، أن أكون بهذا القدر من القسوة . وبدون حديث ، أويت الى فراشك مبكراً :

– ما بك يارافع ؟

– صداع بسيط . . ربما أصبت بزكام !

وقلقت . ولم يغمض جفني ليلتها الا قليلاً ، وتحالف علي الليل فرحت أكابد أحلاماً مزعجة . قلت لنفسي : إنني السبب . . . وانحيت على سخفي باللائمة . . تعذبت من أجلك . . وقررت ان أتخلى عن كل شيء . . وانا اتأمل الملامح التي عدت بها : ملامح مثقلة مهمومة فيها ملل واسترخاء وتواكل . . .

«لن أرد عليك بعد اليوم»

وحمدت للظروف أنني استطعت أن أحزم أمري قبل فوات الاوان . في الصباح ، كنت مريضاً حقاً . وقلت لي :

– لا عليك إنها انفلاونزا . . ناوليني حبة من «الكورسيدين» من الخزانة . . وأخذت معصمك أجسه .

– أنت محموم !

ربما كانت لهجتي متفجعة أكثر مما ينبغي ، فلقد تطلعت الي مستغرباً ، وما كان لك أن تفهم مقدار ما أحسه من شعور بالذنب . .

– ساتصل بوالدتك أدعوها . . لن أذهب الى المدرسة وأتركك بمفردك . .

– علام . . أنه عارض بسيط . إسمعي . لا تتصلي .

لم آبه . فقد كنت خائفة . وفي المدرسة ، بدا لي بشكل مريع ، خاطر غريب ، ظل يتسع في ذهني : أنت مريض . . ويمكن . . يمكن أن . .

بالقطاعة أفكاري . هذا الخاطر لم يمر بذهني قبل ، حتى خيل لي أنني سأبكي . . بل لقد بكيت . . انفجرت في بكاء هستيري أمام المدرسات . .

– ما بك ياغادة ؟

– . . . . .

– قولي ما يبكيك ؟

– رافع . . !

– ما به ؟

– رافع مريض . .

– مريض ماذا ؟

– انفلاونزا . .

وضحكن مني . . بل ضحكت أنا نفسي . . لم يكن لي حيلة في بكائي . وما كن يملكن أن يفهمنني . فرحن يتندرن بهذه الزوجة المدللة التي تبكي اذا أصيب زوجها بالانفلاونزا . وقالت المديرة :

– كان يجب أن يكون لكما طفل تنشغلان به عن نفسيكما . .

اذ ذاك بدت لي حقيقة مريعة أخرى . . حقيقة تنذرني ، بانني كنت غبية ومغفلة حينما تصورت أنني أملك ظروفي ، فمانعت ببطر أن يكون لي طفل . . أين منك أنت . . وأشتد خوفي . . ولم أستطع أن أدرس . .

عدت الى البيت . . فوجدتك قد بارحت فراشك . ولكن الحمى لم تكن قد فارقتك . . على أن خواطري السود كانت قد هدأت ، وضحكت في نفسي لتصرفي . . ولكن حناناً وحباً سابغين أستوعبا كل أحاسيسي وسلوكي ، ورحت أتأمل بتلذذ ، جسمك المبني بأحكام . . ملامحك الواثقة . . قوتك . لا . .

لا يمكن أن تموت ياحبيبي . . من أين جاءتني تلكم الوساوس العمياء !

جلست الى والدتك ، وأنت نائم ، فتحدثنا ملياً بهمس . وفكرت : أنها لا تشبهك ، فهي لفرط صغرها ورقتها تكاد تبدو أشبه شيء بصورة . وتفرست في ملامحها ، وقلت لنفسي : «أنني لا أعرفها جيداً . . وهي عدا هذا لا تزورنا كثيراً» وأخيت باللوم على نفسي ، فلم أكن أشجعك على التردد على أهلك . .

قلت لها :

– نحن لا نراكم كثيراً . . ياأماه .

فابتسمت بشحوب ، وقالت ،

– أسمعي يابنتي . . اللجاجة في زيارة الاولاد تورث الملل . . وربما تقلل من قيمة الاهل . . كان أبو رافع يردد هذا دائما – كان عقله كبيراً يابنتي . . لا تعتبي . . هذا ما أفعله مع أولادي الاخرين . . لا نود أن نثقل عليهم ! .

راعتني قوة شخصيتها . وقارنتها بأمي . . وفكرت بأبيك . . لابد أنه كان راجح العقل حقاً . . أنني لأحسه بينكم ، وأجدني أساق الى احترام ذكراه . .

تحدثنا أنا ووالدتك عنك كثيراً . كنت وأنا أصغي اليها : أحس أنها تود أن تقول شيئاً . . شيئاً ما ، لم تلبث أن أفصحت عنه .

– الا ترين يابنتي ؟ لقد مضى على زواجكما ستان . . فـ . . لابد أن تفكرا بطفل . أدري . . ستقولين أنه هو . . أبداً . . أنكما متشابهان . .

ومن عجب ، أن حديثها لم يضايقني ، بل لم أجزع لاسلوبها الهادئ المتشبث ، بل أصغيت اليها بتحنان ، وهي تقول ضاحكة :

– الا تضجران ؟ . . أن طفلاً سيشدكما أكثر . .

في الليل زارنا الدكتور علي وليلى ، وطلبت منه أمامك أن يفحصك دفعاً لقلقي ، كنت أدري أن ذلك كفيل بأن يغضبك ، ولكنني لم أجد حيلة في رد هذا الخاطر الذي استحوذ على ذهني . . وهتفت :

– علام ؟

وأبتسم الدكتور علي محرجاً ، وهتف :

– لا داعي ياغادة . . أنه زكام بسيط . .

وصحت أنت بعصبية :

– لا تأبه لها يا علي . . اجلس . .

فما كان مني إلا أن هتفت ضارعة بانفعال ، خجلت منه :

– دعه يا رافع . . وحياتك . . ما الذي تخسره ؟

أدري يا حبيبي ، قبل أن أقول ذلك وبعده – كنت أدري أنني أتصرف بطفولة ، دونما تقدير ، وكان عليك أن تفهمني ، لا أن تركب عنادك بذاك الشكل ، الذي

ملأني حزناً وكمداً . . لحظتها . . لا أكتمك يا حبيبي ، انني تمنيت أن تكون مبتلى بمرض خطير حقاً ، لمجرد أن أثبت لك أنني على حق . فيالائم العناد الذي تبادله ذاك ما لن أغتفره لنفسي . . اننا متشابهان . . ووالدتك على حق . . ولقد وعدت نفسي ألا أخر معك في عناد . . فذلك يملك أن يملأني أحياناً حقداً عليك . .

والآن . . ها اننذا اليوم قد شفيت . وغادرتني رغم أن اجازتك لم تنته . وهي الساعة السادسة . وقد وعدت ان تعود مبكراً . .

حبذا . .

أنا منتظرة يا حبيبي . .

* * *

(١٩)

السبت ١ كانون الثاني .

إنها السنة الجديدة . .

لقد منحني ليلة أمس ساعات رائعة عندما اصطحبتني الى هذا النادي الجديد الذي دعاك اليه أصدقاؤك . وانني لاستغفرك – ولا ادري لماذا – عن كل آثار الانطلاق الحلو الذي ألقيت فيه نفسي تلك الليلة ، ليلة السنة الجديدة . أتذكر يا رافع ؟ ذاك الرجل الارمني الكهل الذي كان يشاركنا المائدة مع ابنته ؟

لقد بدأت الليلة مترددة أول الأمر . لم أكن أرى في الحفل سواك ، كان وجودك

مستحوذاً على كل ذلك الصخب . . فالموسيقى . . والالوان . والأضواء ، وأقدام الراقصين . . والهتافات الفرحة المدوية الضاحكة الصادقة . . كل هذا كان يمر الى ذهني عبر إحساسي بانك معي هنا . . الى يميني . . زوجاً . . وحامياً . . وحبيباً . .

وأخذتني . . فرقصنا معاً . فعلنا ذلك ، فأربكت . . ربما أحسست أنني كبرت عن أن أكون الصبية التي كانت تنبهر اذا رقصت مرحاً . . ولكنني على اكتفاك وجدت طمأنينتي . . ثم عدنا . .

ودارت أمامنا أقدح متألقة . .

وتذوقت بحذر قدحاً من البيرة . . وتساءلت في نفسي : هل يصح أن أخلد حريتي ؟

لم أكن أعنى سوى بتحليل مشاعري . . تحليل هذا الخوف من ألا أتصرف بلباقة . وخلال هذا ، التفت الي صديقك الارمني ، وقال بلهجة مكسرة :

– إذا بقيت السيدة متحفظة في فرحتها . . فلن تحس بهجة الحفل أبداً . . .

وأشار بيده إشارة واسعة وقال :

– امرحي . . خذي حريتك . . مثل هذه الليلة ، تمر مرة واحدة في السنة وصب لي قدحاً ، فالتفت إليك مستنجدة ، وبدا لي أن الرجل ثمل ، فما وجدتك . فعدت الى ابنته ، فضحكت لي .

قلت :

– شكراً

– إشربي . انها ليلة السنة الجديدة .

وغالبت ترددي . ربما اولاً ، لأنني لم أرد أن أفسح للرجل مجال الالحاح . . وشربت . ذقت كأسي بحذر . . رويداً ورويداً رحت أتمركز . . وأستعيد شقاوتي ، مستذكرة كل ما خلفته وراءي من سنوات العيث ، واللامسؤولية . . ورحت أتحرك ، وحولي تنفجر الاشياء بهجة . . وكانت ملامح الكهل تلاحقني . . . وبده تؤشر الى أبعد حد تحتمل من سعة .

في ذاك الوقت فقط ، غدوت أرى الأشياء من خلال ارادتي ونفسي ، لم أعد أحذر ولا أخاف . . وكنت واثقة من فرحتي . . ومما أريده . ضحكت . . رقصت . . وهتفت . . وعببت عدداً من الكؤوس . وعند الثانية عشرة ، كنت أرقص بين يديك بميلاد جديد . .

وأنطفأ الضياء . . فقدمت بكرم لك شفتي . .

همست لي ثملاً :

– أنت رائعة . .

ساعتها أدركني النعاس يا حبيبي ، وأحسست ثقل شفتي على جسمي . . واسترخاء أجفاني . . وكنت أشد ما أكون حاجة اليك .

فهمست . .

– فلنخرج . .

كان الليل في الخارج مرهفاً له نجوم مدلاة الى الارض . . وكانت الشوارع خالية تقريباً ، وفيها فرحة متعبة من العيد .

رافع .

ألوم نفسي الساعة انني ما قلت لك عندما ترنحت الساعة الثانية عشرة : «كل عام وأنت بخير يا حبيبي» ، كما ولا بد أن الآخرين فعلوا . . ورغم ثقتي بأن ذلك لا يمكن أن يعني شيئاً . . إلا أن شيئاً من التشاؤم يغلبني هذه الايام . كمن يخشى خطراً لا يعرفه . . لا عليك . . انني راضية ولا اكتمك شوقي الى اللعبة التي انقطعت عنها مذ ألمت بك الوعكة . ومنذ قليل تساءلت : ترى كيف أصبح ممكناً لكلينا ، أن نمر اللعبة دون أن يضعها أحد عند حد ؟ . كيف تسنى لغرورك مثلاً ، أن يقنعك بأن زوجتك يمكن الا تكشف صوتك ؟ حتى لقد بدا لي لفترة ، أنك ربما قدرت انني عرفتك . . . وانني أتجاهل !

أبداً . .

المشكلة أن مشاعري تتضارب . فأكاد حين افكر بمراميك امتلئ رغبة في العبث

بك والانتقام منك . . ونفزعني بعد هذا . . أخاف أن أتورط ، ثم ما يلبث التحدي الذي فرضته يستهويني ، وتشجعني ثقتي بنفسي ، فاندفع ، وأنا أستعيد بحب صوت والدتك وهي تردد أننا متشابهان . . لحظة واحدة . . إن جرس التليفون يرن . .

هي – هلو

هو – مساء الخير . .

هي – (ضاحكة) مساء الخير .

هو – كيف أنت (لنفسه) سؤال سخيف .

هي – بخير . ظننت أنك لن تتصل .

هو – أوه . . انني لأعتذر . . لقد كنت مريضاً . . .

هي – (لا ترد)

هو – وعكه بسيطة . وانتهت .

هي – (بعذوبة) الحمد لله . . على سلامتك .

هو – تقولينها صادقة ؟

هي – ولم لا ؟ لا داعي لأن أرضى لك الشر .

هو – والخير ؟

هي – (بدلال) كل الخير .

(صمت)

هو – غادة .

هي – نعم .

هو – يمكن أن نكون أصدقاء .

هي – طبعاً . . انما .

هو – (بلهفة مصنوعة) ماذا ؟

هي – لا تتسرع النتائج . يكفي أن نضعي ليعضنا باخلاص .

هو – أنت على حق . ربما يجدر أن نتعرف على بعضنا اكثر .

هي – (بذكاء) ليس ثمة ما يجدر أو لا يجدر . لا تخضع القضية لحدود . دعنا كما نحن . .

(بعد هنيهة)

هو – غادة !

هي – هم . .

هو – هل صحيح أنك متزوجة ؟ أرجو ألا يزعجك سؤالي .

هي – ولم ؟ أبداً .

هو – ها ؟ متزوجة طبعاً ؟

هي – ولكن ماذا يهم ذلك ؟

هو – (بارتباك) من الأصح أن أعرف . .

هي – لماذا ؟

هو – الا يهمك أنت مثلاً . . أنظري يا غادة . ألا يهمك أن تعرفي إن كنت متزوجاً أم لا ؟

هي – أبداً (بعد لحظة) ليس الآن على الأقل . قلت لك دع الامور تجري بطبيعتها . .

هو – ولكنك وعدتني في المرة السابقة أن تحدثيني عن نفسك . .

هي – (بغنج) حقاً ؟

هو – ألا تذكرين ؟ كنا في هذا الصدد وقلت فلنؤجل ذلك الى غد .

هي – ولكنك بهذه الطريقة تجعل الحديث أمراً عسيراً .

هو – كما تشائين . لا أريد أن أضايقك . .

هي – (فجأة) هل أنت متزوج ؟

هو – (متردداً) نعم . .

هي – وزوجتك ؟

هو – ما بها ؟

هي – حدثني عنها . . أهي . . أهي جميلة ؟

هو – (مشدوداً) في نظري ؟ . . أجل . .
هي – وفي نظر الآخرين ؟
هو – لست أدري . الأصح . انني لا أريد التفكير في ذلك . .
هي – ومثقفة ؟
هو – أجل .
هي – (بحدة) أنت تكذب !
هو – (مأخوذاً) ماذا ؟
هي – (مستمرة) ان كنت صادقاً ، فماذا تعنيه اذن ؟ ما الذي يدفعك الى هذا العبث ؟
هو – (مضعضعاً) أي عبث ؟
هي – الذي تتعاطاه . .
هو – أتسمينه عبثاً ؟ .
هي – ماذا تريد أن أسميه ؟
هو – (بحزن) شكراً . اذن فأنت لا ترين في حديثنا هذا سوى عبث ؟
هي – (متراجعة) أنه بشكل ما عبث . .
هو – (بأسف) لا أقرك على ذلك . أنني آسف . .
هي – ولماذا الأسف ؟أتظن أن علي أن أوافقك في كل ما تقول ؟
هو – إن كنت محقاً . .
هي – أنا التي تقدر ذلك .
هو – حسناً . . ماذا يغضبك إذن ؟
هي – (بحدة) لست غاضبة . .
هو – صوتك يعكس ذلك . أيكون لأنني قلت لك بأنني متزوج ؟
هي – (تتصنع الغضب) أنت . . أنت لا تخجل . . (بعد لحظة) عفواً . . إنك تثير حنقي . . لا يمكن أن تكون مغروراً الى هذا الحد . . مع هذا . . أنا أعتذر . .

هو – لا تفعلي . فلست مضطرة للاعتذار . إن تعود الاعتذار يورد صاحبه مضايقات هو في غنى عنها . .

هي – (بمصالحة) كم أنت متعب . .

هو – شكراً . .

(تضحك غادة في نفسها)

هي – والآن ؟

هو – نعم . .

هي – حدثني بعد . حدثني عن زوجتك . أتحبها ؟

هو – (يضحك) .

هي – ها ؟ علام تضحك ؟

هو – سؤال غير موفق . .

هي – لماذا ؟

هو – لأنك تعرفين جوابه . (بكيد) أتحسينني أتزوج امرأة لا أحبها ؟

هي – ولم لا ؟ ليس شرطاً أن يحب كل الازواج زوجاتهم .

هو – من ناحيتي شرط !

هي – حسناً . سؤال آخر . .

هو – تفضلي . .

هي – ألا يزعج زوجتك مثلاً أن تعرف أنك تتصل بي ؟

هو – أنها لا تعرف .

هي – واذا عرفت ؟

هو – أكون مغفلاً . . جلفاً . .

هي – ولكن أفرض . . أفرض أنها عرفت . فهل تحسبها تفهم ؟ ألا تظن أنها ستتهم ؟

هو – (متردد) لا . . على الأكثر لا . .

هي – كيف ؟

هو – أنها واسعة الافق . وأحسبها حتى ان تأثرت ، فلن تعلن ذلك . . فهي شديدة العناية بكرامتها . .

هي – وأنت ؟

هو – ماذا ؟

هي – إن كانت كما تصف . أفلا يجدر أن تحترم كرامتها . .

هو – ماذا تريدين أن تقولي ؟ .

هي – (بمكايدة) مالا تريد أن تفهمه . . ولكن لا عليك . كم مضى على زواجكما ؟

هو – (مترددا) . . خمس . . خمس سنوات . .

هي – والأطفال ؟

هو – لا يوجد . . لا نريد أطفالاً .

هي – عجيب .

هو – ما العجب ؟ لسنا على عجلة . .

هي – أيكون أنها لا تنجب ؟

هو – (بسرعة) أبداً . .

هي – أنت ؟

هو – ولا أنا . . القضية أننا لا نريد أطفالاً الآن . .

هي – لا أصدق .

هو – كما تشائين . ليس ذلك ضرورياً . .

هي – أسمع يا . . علي . علي . . أليس كذلك ؟

هو – أجل .

هي – أسمع يا سيد علي . بصراحة ؟ أحس أنك غير صادق في اقوالك ؟

هو – أيهمك ذلك ؟

هي – يهمني ألا تخدعني . .

هو – أخدعك ؟ يالها من كلمة . لكم أنت حذرة .

هي – من حقي . .
هو – ولكن ليس لهذه الدرجة . الثقة بالناس دليل الثقة بالنفس . .
هي – فلسفة !
(صمت)
هو – والآن . حدثيني أنت . .
هي – وان كذبت عليك ؟
هو – سآخذ ما تقولينه وكأنه حقيقة . فلأحس ظلاً لكذب !
هي – إسأل .
هو – (بلهفة مصطنعة) أمتزوجة أنت ؟
هي – قلت لك من قبل .
هو – ولكنك قلت أشياء أخرى ، وتبين بعدئذ أنها غير صحيحة . . عن أختك مثلاً . .
هي – كنت كاذبة . .
هو – والآن ؟
هي – (بعذوبة) صادقة !
هو – (بمثل) اذن . فأنت متزوجة . .
هي – (بسخرية) والله . أتريد أن أحلف لك ؟
هو – لقد حلفت . . (بمرارة) انني أصدقك . .
(صمت)
هي – حسناً . وبعد ؟
هو – بعد ؟
هي – إسأل .
هو – (فجأة) أأنت جميلة يا غادة ؟
هي – وما أهمية ذلك ؟

هو – (بنبرة حالمة) أتخيلك جميلة . لقد رسمت لك صورة في مخيلتي . .

هي – (متماسكة) لست قبيحة .

هو – (بحماس) لابد أن تكوني جميلة . .

هي – (تضحك) ولماذا ؟

هو – (هامساً) إنني أحس ذلك !

هي – (بخبث) ولكن ما أهمية ذلك بالنسبة لك ؟ إنك لا تراني !

هو – (يضحك بسماجة) لا أريد أن أحس أنني أخاطب قبيحة . وأعذريني . . صوتك يعكس ملامح غاية في الاناقة والـ . . الجمال . .

هي – تتغزل ؟

هو – ان كان ذكر الحقيقة غزلاً ؟ نعم !

هي – حسناً . وإن قلت لك إنني في الخمسين ؟ . .

هو – (يتصنع العصبية) لا أصدق !

هي – وان حلفت ؟

هو – (يضحك) أرجوك . . لا تلعبي بي . .

هي – ها ؟ من منا يلعب بصاحبه ؟

هو – (متعمداً) إسمعي يا غلواء

هي – غادة . . قلت لك اسمي غادة . .

هو – ولكنني وطنت نفسي أن أسميك غلواء . .

هي – بل غادة . إياك أن تطلق علي هذا الأسم !

هو – (باستسلام) كما تشائين يا غلواء (يضحك)

هي – (تضحك) أنت ظريف !

هو – (متصنعاً) شكراً . . (مستمراً) حدثيني عن زوجك يا غادة . .

هي – (بجرأة) أنه طيب .

هو – حقاً ؟ (ينتبه أن المفروض أنه يعرف ذلك) أوه . . الدكتور رافع . .

هي – (تبتسم لنفسها . وبعصبية) كيف عرفت ؟

هو – نسيت ؟ مرة اتصلت ، فأجابني صوت غير صوتك . . هنا منزل الدكتور . . وهكذا ، فأنت اذن متزوجة .

هي – (بدعابة) ذكي !

هو – ماذا ؟

هي – أقول أنك ذكي . فقد أكتشفت ذلك بسهولة . .

هو – (متجاهلاً) لابد أن أحدكما يحب صاحبه . .

هي – (ساخرة) ذكي . ألم أقل لك ؟

هو – سأبحث عن عيادة زوجك وأراه . .

هي – (متصنعة) لا . . حذار . .

هو – لماذا ؟ . . سأذهب اليه . وأدعي مرضاً ، والقي عليه نظرة ، وأرى إن كان يستحقك أم لا ؟

هي – قلت لك . . لا .

هو – ولكن ما الضير في ذلك ؟

هي – (بمسكنة) أرجوك . .

هو – كما تشائين . أتخافين منه ؟

هي – (تضحك) لماذا أخاف ؟

هو – أحس أنك تخافين . .

هي – أسمع . لا شأن لزوجي في الأمر .

هو – كيف ؟ أنه بيننا . . . سيكون أمامي كلما تحدثت اليك .

هي – ماذا تقصد ؟

هو – ما قلته . .

هي – ماذا تقصد حين تقول بيننا ؟

هو – أقصد بيني وبينك . .

هي – عجباً ! ما الذي بيني وبينك . .

هو – هذا الذي ترين . .

هي – أسمع . حذار أن تشتط !

هو – أبداً . سأكون عند الحد الذي تضعينني فيه .

هي – ولتعرف جيداً أنني أحب زوجي .

هو – وهل قلت عكس هذا ؟

هي – وانني لا أبدل بقلامة من ظفره الدنيا بأسرها !

هو – (ضاحكاً) عظيم !

هي – وأنه الرجل الوحيد الذي أحببت وسأحب في حياتي !

هو – (ما يزال يضحك) وهل أنكر عليك أحد ذلك ؟

هي – أقول لك ذلك لكي تفهمه ؟

هو – (بلهجة معينة) ثقي أنني أفهمك جيداً !

هي – بل . أنت لا تفهم شيئاً . أتسمع ؟ لاتفهم شيئاً !

(تغلق التلفون)

* * *

(٢١)

الاحد ٢ كانون الثاني .

الساعة الثامنة مساءً . عيادة الدكتور رافع .

رافع (يتحدث في التلفون) . شكراً جزيلاً (ينصت بتوتر) أجل . ولقد بقيت فترة اعاتب نفسي (يقطب حاجبيه ، ويتقر على المنضدة أمامه) صحيح . أنت على حق . من الأحسن أن نكف عن هذا النوع من الاسئلة . بل أنت . أجل . سألتني إن . (يضحك بحرج) بل اذا شئت الحق ، لو انك لم تردي . صحيح (يهز رأسه بعصبية) صحيح . ولكن ذاك كان حلماً . قلت لك صحيح .

إسمعي . . من الطبيعي أن أحاول (يصغي)ألا ترين ؟ لو أمكن أن نستمر على هذا الوضع . . ولكن لماذا ؟ أجل لماذا خرجت عن صمتك ؟

(يسمع صوت غادة . . ويختفي صوت رافع)

غادة – لأنني أردت ذلك . المهم أنك سألت . . ويبدو أنك لابد تعرف الاجابة . . (تبتسم) انظر : ان كنت قد وجدت المبرر للاصغاء . اليك ، فهل يكون غريباً أن أرد عليك ؟ (تصغي) هيا . . كفاك تصنعاً . أتريد أن أصدق أنك مستاء لأنني اجاوبك ؟ (صمت) أما تتكلم ؟ ولكن لماذا ؟ . . والآن قل مباشرة ما تهدف اليه ؟

(يسمع صوت رافع)

رافع – لا أصدق أنك لا تفهمينني . ثق ياغادة أن القضية ليست بالسهولة التي تريدين تصويرها (يصغي ، وهو يفك رباط عنقه) بشكل ما . . أجل . . دعينا لا نناقش ذلك (يصغي) لا استطيع وقد يأتي يوم لن تجدي فيه أيما حاجة الى الشرح . . فلنتحدث عن شيء آخر . .

(يسمع صوتاهما معاً)

غادة – حسناً كيف تجد الطقس اليوم ؟

رافع – (يضحك بمرارة) رائع !

غادة – (بخبث) لشدة ما تحيرني . .

رافع – (متجاهلاً حديثها) هل شاهدت الفيلم الذي قلت لك عنه ؟

غادة – لا . .

رافع – (مندهشاً) كان عليك أن تشاهديه . . إكراماً لي . .

غادة – (بدلال) ثق انني لم أستطع . .

رافع – (بلهجة عتاب) لعلك لا تحبين مشاهدة الافلام . . .

غادة – بالعكس . أهو فيلم جميل ؟ .

رافع – مايزال يعرض . . يمكن أن تشاهديه . .

غادة – سأراه حتماً . . على الأقل أكراماً لك .

رافع – (بتأثر) شكراً .

(صمت . يبدو رافع واجماً تماماً)

غادة – ما بالك سكت ؟

رافع – أصبح الحديث أمراً عسيراً . وأخشى أن أتحدث بلا لباقة . . أتفهمين يا آنسة ؟

غادة – أفهمك جيداً . .

رافع – (ييأس) أشك في ذلك . وانني لقلق لما يمكن أن يؤول اليه أمر حديثنا . ثمة أمور أغالبها في نفسي . .

غادة – مثلاً . .

رافع – حديثنا هذا يفتح لي توقعات لا أقرها . أخشى أنني لن أوفق في المستقبل لأن أتحدث بالطلاقة التي تعودتها . المشكلة أنني أحس التناقض في دوافعي . . ولهذا أفكر في أن أنقطع عن محادثتك !

غادة – ماذا تتوقع أن أقول ؟

رافع – سيكون لما تقولينه أهمية كبيرة . . فقولي .

غادة – أخائف أنت ؟

رافع – أجل .

غادة – (تضحك) خائف مم ؟

رافع – كفى . . أنك لاتدرين ماتفعلين . .

غادة – عجباً . . أتريد أن تخيفني ؟

رافع – لأنني أشك في أنك تقدرين معنى أن تفسحي المجال لدوافعي . . غادة . . ثمة حد ، بعده لا أطيق التراجع . .

غادة – تتراجع عم ؟

رافع – يجب أن تدركي أنني لست بالبساطة التي تتخيلينني . . وسيكلفك ولعي بالحديث كثيراً من المتاعب . فلا تفسحي المجال لي منذ الآن . . دعينا نعيد الامور الى نصابها .

غادة – لشد ما يروق لك تعقيد الأمور . ما الذي تخشاه ؟ إن كل ما يربطنا هو الحديث . . مجرد حديث فقط !

رافع – حتى وإن . ؟ (يسكت) .

غادة – ماذا ؟

رافع – حتى وإن قادنا الحديث الى . . ألا تفهمين ؟ . .

غادة – (بهدوء) أجل . . أنني . .

«يغلق التلفون»

– بعد ساعتين –

(رافع وحده في بار . . يشرب . . يتحدث في نفسه) . . كلهن سواء . . العبث . . الكذب . . اللعب . . وأنت ياأحمق أذا شئت أن تكون رجلاً حقاً . . أخرج لسانك لكل القيم ، وأحص عدد اللواتي أستطعت أن تمتطيهن . . ألف مرة . . ألف مرة ما كان أن أتزوج . . الف مرة تقولها لنفسك كالبغل . . كان الأولى لو أنني مثلاً تزوجت نعجة . . واحدة بليدة لا تفهم إلا أن تنام لي عندما أريد . . شيئاً ذا فخذين و . . مبصقة . . (يطلب قدحاً جديداً) تخدعك . . تخدع أجدادك . . وترتعش وتشد نفسها . . وتتأوه . . لم لا ؟ أليست امرأة ؟ زوجة الدكتور . . خراء . لو كانت غبية لأراحني أن أضبطها ذا يوم . . على الأقل ألا أتعذب بالشك . . وعلام ياجحش ؟ أتحسب أن في الدنيا امرأة لا تخون زوجها ؟ تخونه ونصف . . بنظرة على الأقل . . بفكرة . . كن منطقياً . . كل الرجال يخونون زوجاتهم . . والنساء أيضاً . . أعطهن المجال . . وسترى . . فعلام تغضب إذن ؟ أجل . . كن قواداً ولا تغضب . . على الأقل القواد يعرف أنه قواد ويرضى . . وأنت لا تشتمه حين تسميه «قواد» . . هه ! أذهب . . وأقول لها أخرجي من بيتي . . ستبكي . . ربما لن تبكي . وبعد سنة ستجد زوجاً . . بل لعلها ستجده في اليوم الثاني ، وتنام في فراشه (يضحك) وكنت تقول لنفسك إن الجنس الذي تنجم عنه الخيانة والعار .

. أمر تافه . . وستحل مشكلته ذات يوم . . يوماً ما يصبح مفروغاً منه . . وعادياً . . كالطعام . . (يخاطب صاحب البار) .

– هل أنت متزوج ؟

– لا .

– عبقري . . ولكن كيف تفعل ؟ (يشير بيده اشارة بذيئة)

– (ضحكة مجاملة) لقد شربت كثيراً يادكتور . .

– صحيح . . (لنفسه) سأشرب حتى أصحو . . أو أنتحر . . أجل . وفي الصحف سيقولون انتحر ثملاً(يضحك) لم يسبق لأحد أن انتحر هكذا . . هلو . . أنت أكبر مغفل في التاريخ أنت عصري أكثر مما يجب . . تقدمي مقلوب على قفاه (يشعل سيكارة) ما الذي تريده منها ؟ . . إسمع . . إن كنت رجلاً اقتلها . . لست رجلاً . .

– دكتور رافع

– اهلاً . . (لنفسه) تماسك . . هيا تماسك !

– عجباً . . تشرب وحدك . . ؟

– (لنفسه) ماذا يقصد ؟ (يرد على محدثه) أي والله . . تفضل ! ماتشرب ؟ ويسكي . . براندي . .

– شكراً . .

– بل تفضل يا . . (لنفسه) لا أذكر حتى اسمه . . كيف أنت ؟ (لنفسه) : تحدث . . قل شيئاً . . أريكه (بصوت عال) لم نعد نراك . . (لنفسه) اين تعرفت عليه ؟

– . . . . .

– (لنفسه) ماذا قال ؟ . . انني لا أصغي (لمحدثه) اسمع ألم تتزوج بعد ؟

– أنا ؟ (يضحك) أنا ؟ تزوجت والبقية . .

– البقية في حياتك(يضحك)

– (يشاركه الضحك) البقية تأتي . . البقية تأتي . . .
– (بالحاح) والآن اشرب . .
– لا أقدر . . الكبد . . كبدي يادكتور . . أنسيت . . نصحتني أن أقلل . . .
– بالعكس . . أشرب . . تعش (يضحك) . .
– بعد فترة –

(رافع جالس على سريره . وعاء فيه قيءٌ على الأرض . غادة تقدم له كوباً من القهوة)

غادة : (بحنان ولهفة) إشرب . . وستهدأ معدتك (يرفع اليها عينيه . . ويخيل اليها انها ترى فيهما دمعة . تجلس الى جانبه ، وتروح تمسح على جبينه بحب وهي تهمس :) ستهدأ . . ستكون بخير ! !

* * *

(٢٢)

الخميس ٦ كانون الثاني

حبيبي . كنت قد انقطعت . فلماذا عدت ؟

انني لأدرك بعمق مقدار ما تعانيه . ولقد سعدت والاسبوع يتقضى دون أن تعود للتليفون . وقلت لنفسي بأنك أخيراً كفيتني مشقة النهاية الصعبة . .

تحبني . . لهذا تقسو علي . . . ترى ما الذي تريدني أن أفعله ؟

إنني لا أستطيع أن أنسى منظرك يوم عدت الى البيت ثملاً ، تحمل في عينيك اعباء جبل من الشك والتعب والحيرة . .

ولم استطع أن أشمت بك . بل لقد ادركت بزهو ، مقدار ما تحمل لي من حب . ولكنني كنت أعي أيضاً مقدار ما أكابده من إهانة وما تتعرض له حياتنا من خطر . حتى لقد غدا جرس التلفون يقض مضجعي . . وحرت ياحبيبي . . حرت كيف أتصرف . . فعيناك منذ ذلك اليوم تلاحقانني ، فيهما شك مريض ، واتهام ظالم . .

رباه لماذا اتصلت بي اليوم ؟ لماذا عدت من جديد ؟ وقد كان انقطاعك كفيلاً لأن ينسيني وينسيك ؟ . . لو . . لو كان عندك بعض ما عندي من تماسك ! . .

وقلت لك الـ (هلو) . ولم تمهلني . . رحت تتحدث بعصبية وجنون . . أجل جنون ما كان لغيري أن يفهمه ويحتمله !

– أحبك أتسمعين ؟ أحبك ، ولست أدري ما سيكون وقع ذلك عندك ، انما لا حيلة الا أن أقول لك ذلك . . ومقدماً . . ها أنا احلك من ايما زد . . لك الا تردي . . أن تقولي انك تكرهينني . . تحتقرينني . . بل سدي التلفون بوجهي ، ولا تبالي . . اغلقي التلفون . . اغلقيه أرجوك . . .

ولم أجد ياحبيبي ما الصواب . . الى حين . كان يخيل إلي أن أصوب ما أفعله هو أن أغلق التلفون كما أردت . الا أن ذلك لم يكن ليجدي . . فانت لن تنسى . . ولن تغفر لي . . ولا لنفسك . وليس سهلاً أن أحون أنا أيضاً دواعي . ولهذا أبقيت الخط مفتوحاً . وأنا وحقك أرتعد خوفاً وغضباً . . و . . كراهية . . .

لماذا عدت ياحبي ؟ ها أنا أسألك ، واعترف انني بشكل ما . . كنت أتمناك أن تعود . . وسمعتك تقول بوحشية :

– والآن . لقد صارحتك . . فهل أنت مقدرة ما تفعلين ؟

– أجل .

وهتفت مخبولاً :

– هل تبادليني نفس ما أحس ؟

قلت وأنا أرتعد :

- كان عليك أن تفهم ذلك . .

وجاءني صوتك مفجوعاً :

- لا أستطيع أن أفهم . . غلواء (أجل أسميتني غلواء) انك متزوجة !

- قلت بحزم :

- وماذا في ذلك ؟

والقيت سؤالك المخيف :

- ماذا ألا تحبينه ؟

اتدري ياحبي ؟ أوشكت أن أقول لك : «لا» لو لا أنني تداركت :

- بلى !

- اذن ؟

لم أدر . أكان في نبرتك حزن ، أم فرح . . أم حيرة هي أقسى من الفرح والحزن . .

- إذن كيف ؟

- قل لي . ما بالك تحشر زوجي في الأمر ؟

- ولكن هذا غريب . تحبينه . . و . .

قلت ببرود :

- وأحبك . . لا أرى في هذا تعارضاً !

- سأجن . . .

ورثيت لك :

- عجباً . أتحسبني لاني أحبك ، مضطرة على أن أقلع عن حب زوجي ؟

- إذن كيف ؟

فأجبتك بعصبية بأنني أحب زوجي ولكنني في نفس الوقت أحب أحاديثك . قلت لك انك بالنسبة لي لست أكثر من صوت . . وانني أنفعل واشتاق الى صوتك في التليفون . . ولكنك لم تدعني أكمل هذري . .

قاطعتني بلهفة :

– غادة . . رجاءً . سؤال واحد . . لو أنك لم تكوني متزوجة . . افكان ممكناً حينذاك . . أكان ممكناً أن نكون أنا وأنت . . أن نحب بعضنا ؟ . . أن نتزوج مثلاً ؟ ها ؟

«لا أدري . . » قلتها بغضب . . «بالأسئلتك ! »

قلت ذلك وإعماقي تنبض لك بألف رغبة آثمة . . وددت لو قلت لك بانني أكره زوجي . . وانني أريدك و و . .

ترى ماذا كنت ستفعل ؟

رافع . .

حذار يا حبيبي . . انك تتعبني . . وهي لعبة خطرة . ولنحمد لي انني ما زلت الزوجة الصابرة . . الذكية بالقدر الذي أتمكن فيه منك . .

أعرف انك لن تكف . . وستعود . .

لشد ما يبدو كل شيء الان ، مرتبكاً ، معقداً . . ومشاعري تتعارض . . وذهني مضطرب . . وأعاني . . وأنا اعلم انني أعيش هذا بلا مبرر . .

لن أبالي بما يمكن أن يكون . . تأمل . . حتى وان هدمت حياتي . . ذاك انني ان لم افعل ، فسيكون ذلك كفيلاً بأن يحتقك في قلبي . .

لقد بدأنا . . وأنا لن اتراجع . .

فعد الى بيتك . . عد ، كما تشاء . . صاحياً . . ثملاً . . راضياً . . ساخطاً . . تعال : فما زال حناني أوسع من أفكاري ! !

* * *

(٢٣)

الجمعة ٧ كانون الثاني .

عدت هادئاً . وتساءلت : ان كنت تتظاهر بالهدوء . وأثارني ذلك . وقدرت أن حديثي عن «زوجي» أراحك . . وهدأ وساوسك . .

أقلقني ذلك . .

أعرف انني يجب أن اصدم فيك شيئاً ما . . أن اصدم في ذاتي هذا الاحساس بتأثيرك . . أن استفيق ، فاحرر نفسي . .

وقلت لخواطري : «ان كنت أحترم نفسي حقاً . . فلأكن أشد وضوحاً وحزماً .

إنما ، كيف ؟

تأخرت صباح اليوم عن الخروج الى العيادة . . وقبل خروجك لاحظت لي :

– لا يبدو أن صحتك على ما يرام . . أتحسين تعباً ؟

– بالعكس . . .

وفي الثو أحسست دواراً . ولكنني تماسكت . وما أن خرجت حتى هرعت الى المرآة ، فبدا لي أن وجهي يعاني شحوباً ، وان ملامحي متعبة حقاً . .

ودفع اليت الى نفسي إحساساً بالوحشة . . فهربت الى الحديقة . .

كان البستاني يعمل بحذق . . فرحت اتشاغل بمراقبته ، وركزت اهتمامي بتأمل النبتات الخضر وهي تنشق عن التربة . .

كانت الشمس تغسل كل شيء . . والدفء يتسلل الى العالم . . والصمت . . وملامح البستاني الكهل الرضية . .

ودق جرس التلفون . وكانت احسان .

ملأني حديثها انتعاشاً . وهتفت بها .

– تعالي يا احسان . . وحياتك أنا وحدي

– ولكن يا غادة . .

– ابدا . أنا بحاجة إليك . . .

وجاءت خفيفة مثل فراشة . . وملأت البيت مرحاً . فتمنيت لو كنت مثلها . . حرة . . خفيفة . . واستعدت إحساسي بذاتي من جديد .

جلسنا نستعيد أيام الجامعة ، وعبثها ، ونزواتها . . وسألتها :

– إحسان . وبعد ؟ ما الذي تنتظرينه ؟

فضحكت بعذوبة . وقالت:

– أتعرفين واحداً اخطبه يا غادة ؟

– ولكن لا يعقل ألا يكون هناك أحد . .

فضحكت :

– بل يعقل . . ليس ثمة أحد يا غادة !

بردت ملامحها . فأحافني ذلك . . وسمعتها تقول :

– اتريدين أن أدور الشوارع . . وأصطاد زوجاً ؟

– ولكن . .

– أنا حائرة يا غادة (وضحكت بتساهل) لاعليك . . إنني اعيش . .

فقلت بحد ، وأنا افكر في نفسي :

ولكنك لم تكوني تطيقين العيش دون . . دون أحد . . دون حب . . ألست صاحبة الرقم خمسة عشر ، ؟

كانت الطالبات قد حسبن لاحسان يومئذ خمسة عشر صديقاً . . .

– ربما . . ربما استوفيت نصيبي في ذلك !

بدت عيناها حزينتين . وأدركت انني أعذبها . ولم أدر أأحسدها أم أرثي لها . . . أم لنفسي . . ؟

وعدت بعد ذلك أنت . واصطدت في عينيك نفس النظرات من جديد . . وروضت نفسي ألا أبالي «فلتعرف إحسان . . وان استطاعت . . فلتسلبه مني . . لن أبالي . . » ، وتساءلت ان كان ذلك يحنقني . هل صحيح إنني أريد امتلاكك ؟ هل صحيح أن علاقتنا تقوم على هذا الاساس : الاخلاص الذي تقابله الخيانة بحدة . ؟

كنا ساعتذاك معك في السيارة . وكنت تطوف بنا في ضواحي العاصمة . . نشيطاً . . طلق الملامح . قلت لنفسي : إننا نلعب تماماً . . وفكرت : ماذا لو وفرت لك مجال مصادقة إحسان . . وأكثر لو مهدت لك أن تحبها ؟ وفي مقابل ذلك لو كان لي أتعرف . . أن أحس أنني حرة أيضاً ؟

تعمدت حين عدنا أن تجلس إحسان بجانبك . فعلت ذلك بطريقة ، جعلتك تدرك إنني اتقصد ذلك . فقطبت . . وبقيت ساهماً طوال الطريق . .

يا حبيبي . .

لتكن واثقاً إنني مازلت أحبك .

ولكن حبنا محاصر . . ذاك أنني لم أسمح لنفسي أن أفكر بسواك بحرية . . من يدري ؟ لو أنني استطعت اقناع نفسي بالتحرر منك . . وأن اختبر الرجع الذي سأقدمه . . .

لست لك وحدك . . ولست لي وحدي !

ان في ذاك أنانية . . مزدوجة سوداء . .

وحياتنا عمر واحد . . والعالم واسع يا حبيبي ! !

* * *

(٢٤)

قال لنفسه بنبرة طفل : «هذه المرة فقط . . سأكلمها آخر مرة . . .» .

كان وهو يدير رقم التليفون ، قد وطن نفسه على أن ينتهي من الأمر . . وفكر : «أكشف لها اللعبة . .» وخاف من فكرته .

– هلو !

سقط الصوت في نفسه مثل ذكريات . وقال :

– مساء الخير . .

– هلا . .

- أكنت تتوقعين محادثتي ؟
- طبعاً .

جاءه صوتها مقتضباً . وسألها بدون تفكير :

- لماذا ؟

قالت بنبرة أحس فيها تعباً :

- حسناً . لم أكن اتوقع . .

احزنه ردها . ووجد نفسه بليداً ، ولم يجد شيئاً يقوله سوى :

- غادة . . احتمليني فهذه آخر مرة أكلمك فيها :

وساد صمت خيل لي فيه إنها لن ترد . ثم جاءني صوتها من بعيد :

- لماذا ؟

قلت بحزن :

- ذاك أحسن . أليس كذلك ؟
- أجل .
- ألاترين ؟ لا فائدة من أن نستمر . .
- . . . .
- ألا تقرينني على هذا ؟

وسمعت صوتها هذه المرة غريباً :

- ترى ما الفائدة التي كنت ترجوها ؟

وارتبكت . وهمست منفعلاً :

- لم يعد لدينا ما نقوله !

قالت بهدوء :

- فليكن . .
- وإنني . . ماذا أقول ؟ إنني لأ شكرك أنك أصغيت لي . . .
- . . . .

– ما بالك لا تردين ؟

– . . .

وخيل لي أنها تبكي . .

– غادة . .

– أجل .

– قولي شيئاً .

– ماذا أقول ؟ هل تحسبني سأتوسل اليك أن تستمر ؟ تريد أن تقطع . حسناً . كما تشاء . انما ما كان أغناك عن أن تتصل بي لتقول لي ذلك !

– ولكن لا تغضبي ياغادة . لا أريد أن نفترق متخاصمين !

قاطعتني :

– لشد ما يسقمني غرورك !

قلت محرجاً . .

– حسناً . ان شئت ، فلنستمر . . انما . . .

– أجل . فلنستمر . لن أسمح لأحد أن يلعب بي . . .

وهمست :

– ولكن ياغادة . اسمعيني . .

– اسمع أنت . ان كنت تسألني رأيي . ان كنت رجلاً حقاً ، فلنستمر . لا تقاطعني . إن كنت رجلاً . فدعنا نلتقي . .

– ولكن . .

صاحت بانفعال :

– أرأيت ؟

وأردفت :

– جبان . .

كان شيء في اعماقي يتصرف دوني . . ينكر . . ويقول . . ويتصرف ، وعاجلني صوتها :

– ها ؟ ما بالك سكت ؟

قلت بيأس :

– ما الذي سيضيفه لقاؤنا ؟

– كثيراً . يجب أن تكون بالنسبة لي انساناً استطيع تبينه . . .

يجب . . .

– اسمعي يا عزيزتي . .

– لست عزيزتك !

– بل انك لكذلك لو تدرين . .

وكنت أدرك الحرج الذي اسببه له . . وكان حذري يتخلى عني ، وهمست بنعومة :

– إذن دعنا نلتقي . ألا ترى ؟ انني أتوسل اليك !

قال بخطورة :

– ان التقينا ، فلا أحسبنا سنفترق . فكري . أتطيقين ذلك ؟ سيسبب لنا اللقاء التزامات جديدة . ومن يدري ؟ قد يكره أحدنا الآخر . . . ولن احتمل ذلك . .

– لست واثقاً من نفسك !

– وأنت ؟

– دعنا نلتقي قلت لك . فليس عدلا أن تنقطع بهذه الطريقة !

– تقي أنني سأذكر أحاديثنا هذه بعبادة . .

– ولن تكلمني بعد الآن ؟

– أبداً ؟

– واذا فعلت ؟ وأذا عن لك أن تتصل بي من جديد ؟ لديك رقم التليفون . . تستطيع أن تديره أنى شئت وتتحدث . . ألا ترى ؟ إنك لست منصفاً . أعطني أنت أيضاً رقم تليفونك :

– لا تليفون لي !

– عنوانك . . اترك لي نفس الخيار في أن أتصل بك أنا أيضاً . . اترك وبهذا نتساوى !

وظل ساكتاً . وكان عنادي ينمو . وكنت خلال هذا أتحرر بقسوة من كل مخاوفي عليه . وأريد انتصاري . . أجل انتصاري . . هتفت بانفعال :

– ها ؟ تسكت اذن ؟ أردت أن تلعب بي ؟

– أحلف لك : لا .

– بل لقد فعلت . لقد أفسدت حياتي أيها الغبي !

كانت نبرتي متفجعة حقاً . . يائسة . وكنت صادقة : وسمعته يقول :

– أنا ؟

قلتها متسوعاً . وأردف :

– أنا أفسدت عليك حياتك يا غادة ؟

أجبته وأنا اهتز :

– لقد كنت أعيش قانعة مع زوجي . . أما الآن ؟

وسكت . . . وسمعت صوته يأتي بعيداً :

– لن يتبدل شيء . لقد قلت أنت ذلك بنفسك . . أنسيت ؟

– كنت واهمة . .

قلتها بتشف . فصاح :

– لا . .

وارتبك الخط . وخيل إلي أنني أسمع في التليفون صوت شيء يسقط . . وصرخت :

– رافع . . رافع . . رافع . . هلو . .

ولم يرد .

ظل الخط مفتوحاً . ثم جاءني صوت السماعة وهي توضع مكانها . . وانتهى كل شيء ! !

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ببغداد ١٣٩٥ لسنة ١٩٨٣

١٨/٥٠٠٠ - ١٩٨٣/١٢/٣٠

مطبعة الأديب البغدادية هاتف 880132

للمؤلف

قصائد غير صالحة للنشر «مجموعة مشتركة»
دماء بلا دموع يا موصل
انتظريني عند تخوم البحر «قصيدة طويلة»
اعترافات مالك بن الريب
المسافة قصة طويلة
السودان ثورة ورجال
سيدة التفاحات الاربع «قصائد»
الشعر الحر في العراق «دراسة نقدية»
اعترافات «منتخبات شعرية»

تحت الطبع

ثلاثة فصول ليوسف بن يعقوب «مجموعة شعرية»
الخيانة «رواية»
مذكرات

الغلاف | تصميم رياض عبد الكريم
تصوير هيثم فتح الله

منشورات
مطبعة الأديب البغدادية هاتف [illegible]

السعر ٢٫٥٠٠ دينار